كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الاول

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طبع في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

سنة ١٨٨٧

p 295, 298

كتاب

عِلمُ الأدَب

مقالاتٌ

لِمشاهيرِ العرب

على الجزء الاول

من

عِلمِ الأدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
بيروت سنة ١٨٨٧

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوَّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوَّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلمُ ٱلأَدَبِ عِلمٌ يُحتَرَزُ بِهِ عَن جَمِيعِ أَنوَاعِ ٱلخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلعَرَبِ لَفظًا وَكِتَابَةً . وَذٰلِكَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلمُحَاوَرَاتِ فِي إِفَادَةِ ٱلعُلُومِ وَٱستِفَادَتِهَا لَمَّا لَم تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ إِلَّا بِالأَلفَاظِ وَٱلكِتَابَةِ وَأَحوَالِهِمَا كَانَ ضَبطُ أَحوَالِهِمَا مِمَّا ٱعتَنَى بِهِ ٱلعُلَمَاءُ . فَٱستَخرَجُوا مِنْ أَحوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوهَا بِٱلعُلُومِ ٱلأَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ أَدَبِ ٱلدَّرسِ عَلَيهَا بِٱلذَّاتِ وَأَدَبِ ٱلنَّفسِ بِٱلوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نوعَانِ نَفسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَالنَّفسِيُّ بِتَوْفِيقِ اللّٰهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الْاَفعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ الطِّبَاعِ . وَالكَسْبِيُّ مَا اسْتَفَادَتْهُ الْاَنفُسُ مِنْ اَحَاسِنِ الْاَقوالِ الْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ القُلُوبِ وَالْاَسْماعِ وَهُوَ الَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي النُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِاَجْلِهِ الْعُيُونُ بالْاِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ النُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيْهِ بِتَتَابُعِ الْاِذْلَالِ

وَاَمَّا تَقْسِيمُ الْاَدَبِ الْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ابْنُ الْاَنبارِيّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ الْعَلَّامَةُ الْجُرْجَانِيُّ اِلَى اثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ: لِعِلْمِ الْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ . اَمَّا الْاُصُولُ فَالْبَحْثُ فِيهَا: (١) اِمَّا (عَنِ الْمُفرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ اللُّغَةِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ الصَّرفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ انْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِالْاَصَالَةِ وَالْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ الِاشْتِقَاقِ . (٢) وَاِمَّا (عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ) . فَاِمَّا بِاعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا التَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا الْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ النَّحْوِ . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ الْمَعْنَى فَعِلْمُ الْمَعَانِي . وَاِمَّا بِاعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ الْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ الْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلبيانِ.وعِلمُ ٱلبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمَي ٱلمَعاني وٱلبيانِ داخِلٌ تحتَهما.(٣) وإمّا (عَنِ ٱلمُركّباتِ ٱلموزونةِ) . فإمّا مِنْ حَيثُ وزنِها فعِلمُ ٱلعَروضِ اوْ مِنْ حَيثُ اواخِرِهَا فعِلمُ ٱلقوافِي

وَامّا ٱلفُروعُ فَٱلبحثُ فِيها إمّا انْ يتعلّقَ بِنُقُوشِ ٱلكِتابةِ فعِلمُ ٱلخطِّ اوْ يختصُّ بِٱلمَنظُومِ فَٱلعِلمُ ٱلمسَمّى بِقَرضِ ٱلشِعرِ . اوْ بِٱلنَّثرِ فَعِلمُ ٱلإنشاء . اوْ لَا يختصُّ بِشَيْءٍ فَعِلمُ ٱلمحاضَراتِ وَمِنهُ ٱلتَّوارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلعِلمُ لَا مَوضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوارِضِهِ اوْ نَفيِها وَإنّما ٱلمَقصُودُ مِنهُ عِنـدَ اهْلِ ٱللِّسانِ ثمرتُهُ وَهِيَ ٱلإجادةُ فِي فَنَّيِ ٱلمَنظُومِ وَٱلمَنثُورِ عَلَى اسَالِيبِ ٱلعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ . فَيَجْمَعُونَ لِذٰلكَ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ مَا عَسَاهُ تحصلُ بِهِ ٱلكَلِمَةُ مِنْ شِعرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلإجادةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغةِ وَٱلنحوِ مَبثُوثَةٍ اثناءَ ذٰلِـكَ مُتَفرِّقةٍ يَستقرِي مِنهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلغَالِبِ مُعظَمَ قَوانِينِ ٱلعَربِيَّةِ مَعَ ذِكرِ بَعضٍ مِنْ ايّامِ ٱلعَرَبِ لِيَفْهَمَ بِـهِ ما يَقَعُ فِي اشعارِهِمْ مِنهَا وَكَذٰلِكَ ذِكرُ ٱلمُهِمِّ مِنَ ٱلانسابِ ٱلشَّهيرةِ وَٱلاخبارِ ٱلعَامَّةِ . وَٱلمَقصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ انْ لَا يَخفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَاسَالِيبِهِمْ

وَمَنَاحِي بَلاَغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ . لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ بِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلِٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ. فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرَّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِيِّ جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ .وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَدْنَاهُ . وَلَعَمْرِي

اِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ اَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو اِلَيْهَا ٱلْأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا اَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ اَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَاَنْفَسُهَا قِيمَةً فَاطْلُبُوهُ فَاِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَاَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَاِذَا اَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ اَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَاِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ اِذَا اَكْرَمُوكَ لِدِينٍ اَوْ اَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ … فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ … وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدِّيْنُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَاِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَاِنْ كُنْتُمْ اَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَاِنْ اَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّةٍ. قَالَ بُزُرْجُمهرُ : مَنْ كَثُرَ ادَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ ادْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْأَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنفَعُ نَسَبٌ بِلَا ادَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا احْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي مَا انَا مَوْلًى وَلَا انَا عَرَبِي
وَإِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى احَدٍ فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى ادَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلْأَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ انْفَقُ مَعَاشٍ وَاجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ إِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالًا وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالًا

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ انَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا . وَاُسُّ ٱلفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ ٱلآدَابِ هُوَ ٱلعَقْلُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوجَبَ ٱلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ ٱلدُّنيَا مُدَبَّرَةً بِاَحكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ ٱختِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ ٱلبُلَغَاءِ : ٱلعَقْلُ خَيْرُ ٱلمَوَاهِبِ وَٱلجَهْلُ شَرُّ ٱلمَصَائِبِ . قَالَ اِبرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ ٱلفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ ٱلفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ ٱلفَتَى بِٱلعَقْلِ فِي ٱلنَّاسِ اِنَّهُ ... عَلَى ٱلعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ اَخلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ ٱلعَبْدُ بَعْدَ ٱلإِيمَانِ بِٱللهِ تَعَالَى اَفضَلَ مِنَ ٱلعَقْلِ . وَيُقَالُ : مَا تَمَّ دِينُ ٱمرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمْهَرُ : ٱلعَقْلُ كَٱلمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : ٱلعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ ٱللهُ طَبعًا وَغَرَزَهُ فِي ٱلقَلْبِ كَٱلنُّورِ فِي ٱلعَيْنِ وَهُوَ ٱلبَصَرُ .

وَكَمَا يُدرَكُ بِٱلبصرِ شَوَاهِدُ ٱلأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدرَكُ بِنُورِ ٱلعقلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمَحْجُوبِ وَٱلمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلقَلْبِ كَعَمَى ٱلبصرِ. قَالَ بَزَرْجَمهر: ٱلإِنسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقلٌ فَإِنْ اخطَأَهُ ٱلعقلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيسَ بِإِنسَانٍ. قَالَ ٱلمتنبّي:

لَوْلَا ٱلعُقُولُ لَكَانَ ادنَى ضَيغَمٍ ادنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلعقلُ عقلًا تَشبِيهًا بِعقلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلعقلَ يَمنَعُ ٱلإِنسَانَ مِنَ ٱلإِقدَامِ عَلَى شَهوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمنَعُ ٱلعقلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِذٰلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيسٍ: إِذَا عقَلَكَ عقلُكَ عَمَّا لَا يَنبَغِي فَأَنتَ عَاقِلٌ.

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعْلَمْ أَنَّ بِٱلعقلِ تُعرَفُ حقَائِقُ ٱلأُمُورِ وَيُفصَلُ بَيْنَ ٱلحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنقَسِمُ قِسمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكتَسَبٌ. قَالَ ٱلعُتْبِيُّ: ٱلعقلُ عقلَانِ عقلٌ تفرَّدَ ٱللهُ بِصُنعِهِ وَهُوَ ٱلأَصلُ. وَعقلٌ يَستَفِيدُهُ ٱلمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلفَرْعُ فَإِذَا ٱجتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهُمَا صَاحِبَهُ تَقوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلمَةِ. وَلِذٰلِكَ قَالَ امِيرُ ٱلمُؤمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ ابِي طَالِبٍ:

رَأَيتُ ٱلعقلَ عقلَيْنِ فَمَطبُوعٌ وَمَسمُوعُ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلًا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمَّى الحبل عقالًا

فَلَا يَنفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنفَعُ ٱلشَّمْسُ وَضَوْءُ ٱلعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ ۰ وَبِهِ

* قد قسَّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال:القوى العقلية اربعة اقسام.(الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيَّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة.فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريَّة والادراكات الحسيَّة فكذلك هذه القوَّة الغريزيَّة تهيئة الانسان للعلوم النظريَّة والصناعات الفكريَّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرَّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة.(الثاني)القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأَن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانَين فيقال له التصوُّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتَّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتَّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر.فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدَّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوَّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوَّة يسمَّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة.والأوَّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يمتازَ ٱلإِنسانُ عن سائِرِ ٱلحيوانِ فإذا تمَّ في ٱلإِنسانِ سُمِّيَ عاقِلًا وخرجَ بهِ إلى حدِّ ٱلكمالِ كما قالَ صالحُ بنُ عبدِ ٱلقدُّوسِ :

اذا تمَّ عقلُ ٱلمرْءِ تمَّتْ أُمورُهُ وتمَّتْ أمانيهِ وتمَّ بِناؤُهُ

وٱختلفَ ٱلناسُ في حدِّ ٱلعقلِ وفي صِفتهِ على مذاهبَ شتَّى فقالَ قومٌ : هو جوهرٌ لطيفٌ يُفصلُ بهِ بينَ ٱلحقائقِ ٱلمعلوماتِ .. وهذا ٱلقولُ في ٱلعقلِ بأنَّهُ جوهرٌ لطيفٌ فاسدٌ من وجهينِ : (أحدُهما) أنَّ ٱلجواهرَ متماثلةٌ فلا يصحُّ أنْ يوجبَ بعضُها ما لا يوجبُ سائرُها ولو أوجبَ سائرُها ما يوجبُ بعضُها لٱستغنى ٱلعاقِلُ بوجودِ نفسِهِ عن وجودِ عقلِهِ(١) . (وٱلثاني) أنَّ ٱلجوهرَ يصحُّ قيامُهُ بذاتِهِ فلو كانَ ٱلعقلُ جوهرًا لجازَ أنْ يكونَ عقلٌ بغيرِ عاقلٍ كما جازَ أنْ يكونَ جسمٌ بغيرِ عقلٍ . فٱمتنعَ بهذينِ أنْ يكونَ ٱلعقلُ جوهرًا . وقالَ آخرونَ : ٱلعقلُ هوَ ٱلمُدرِكُ للأشياءِ على ما هيَ عليهِ من حقائقِ ٱلمعنى . وهذا ٱلقولُ وإنْ كانَ أقربَ مِمَّا قبلهُ فبعيدٌ من ٱلصوابِ من وجهٍ واحدٍ وهو : أنَّ ٱلإدراكَ من صفاتِ ٱلحيِّ (٢) وٱلعقلُ عرضٌ يستحيلُ ذلكَ منهُ كما يستحيلُ أنْ يكونَ متلذِّذًا أو آلِمًا أو مشتهيًا (٣) . وقالَ آخرونَ من

---

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتَّفقا في جميع اجزائهما لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذاً او آلمًا او مشتهياً . لان اللذّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَاوَلُهُ مِنَ ٱلْإِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْإِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْاثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانسانيّ . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرَّد مادَّتهُ عن المحسوسات وهذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليَّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إِنَّ ٱلعَقلَ ٱلمُكتَسَبَ هُوَ نَتيجَةُ ٱلعَقلِ ٱلغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهايَةُ ٱلمَعرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّياسَةِ وَإِصابَةِ ٱلفِكرَةِ وَلَيسَ لِهٰذا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنمِي إِنِ ٱستُعمِلَ وَيَنقُصُ إِنْ أُهمِلَ . وَنَماؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجهَينِ :

(ٱلوَجهُ ٱلأَوَّلُ) بِكَثرَةِ ٱلِاستِعمالِ إِذا لَمْ يُعارِضهُ مانِعٌ مِن هَوًى وَلَا صادٌّ مِن شَهوَةٍ كَٱلَّذِي يَحصُلُ لِذَوِي ٱلأَسنانِ مِنَ ٱلحُنكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثرَةِ ٱلتَّجارِبِ وَمُمارَسَةِ ٱلأُمورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلعَرَبُ آراءَ ٱلشُّيوخِ حَتَّى قالَ بَعضُهُم : ٱلمَشايِخُ أَشجارُ ٱلوَقارِ . وَمَناجِعُ ٱلأَخبارِ . لَا يَطِيشُ لَهُم سَهمٌ . وَلَا يَسقُطُ لَهُم وَهمٌ . إِنْ رَأَوكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ . وَإِنْ أَبصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيكُم بِآراءِ ٱلشُّيوخِ فَإِنَّهُم إِنْ فَقَدُوا ذَكاءَ ٱلطَّبعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِم وُجُوهُ ٱلعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِأَسماعِهِم آثارُ ٱلغِيَرِ . وَقِيلَ فِي مَنثُورِ ٱلحِكَمِ : مَنْ طالَ عُمرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزادَتْ قُوَّةُ عَقلِهِ : وَقالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلأَيّامُ جاهِلاً إِلَّا أَدَّبَتهُ . وَقالَ بَعضُ ٱلحُكَماءِ : كَفَى بِٱلتَّجارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلأَيّامِ عِظَةً . وَقالَ بَعضُ ٱلبُلَغاءِ : ٱلتَّجرِبَةُ مِرآةُ ٱلعَقلِ . وَٱلغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلجَهلِ . وَقالَ بَعضُ ٱلأُدَباءِ : كَفَى مُخبِرًا عَمّا بَقِيَ ما مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلأَلبابِ ما جَرَّبُوا . وَقالَ بَعضُ ٱلشُّعَراءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ   وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ   اَفَادَتْ لَهُ ٱلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ. فَإِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ. كَالَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ: عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ. ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ. لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ إِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ. فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ:

يَاهَرِمُ ٱبْنَ ٱلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبَا   إِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ. وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

رَاَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا   وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا
وَلَوْ اَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ   حَوَى ٱلْآبَاءُ اَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ. وَأَنتَ أَحمَقُ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. فَأَنظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُاللّٰهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَاللّٰهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَالَكَ لَاتَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ. فَأَنظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمُنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ. وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ الْأَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ. وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلُّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمَعِ عَلَى مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْمَاءُ فِي الرَّمْلِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرُّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي ٱللُّغَةِ بِمَعْنَى ٱلشَّخْصِ وَعِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحْدَى ٱلْحَوَاسِّ ٱلْبَاطِنَةِ. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ ٱلصُّوَرَ ٱلْمُرْتَسِمَةَ فِي ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرَكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ ٱلصُّوَرُ عَنِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلْبَاطِنَةِ. وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ ٱلتَّجْوِيفِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلتَّجَاوِيفِ ٱلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ(١). وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ ٱلْخَيَالِ بِأَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ ٱلذُّهُولِ لَٱمْتَنَعَ ٱلْحُكْمُ بِأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. (وَٱلْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى ٱلصُّورَةِ ٱلْمُرْتَسِمَةِ فِي ٱلْخَيَالِ ٱلْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ ٱلْحَوَاسِّ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْمَعْدُومِ ٱلَّذِي ٱخْتَرَعَتْهُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ أَيِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلظَّاهِرَةِ. وَبِقَوْلِنَا مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ ٱلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا ٱخْتَرَعَتْهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ ٱخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا ٱلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوردي باختصار)

(راجع صفحة ٥٩٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِي. وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
اِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
اَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ . وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ : كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً . وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً . فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي . وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي . وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا اَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ . قَالَ : مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ . اَمَّا اَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَاَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ . وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ اَحْمَدَ : اجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ . وَقَالَ مَهْبُورٌ : لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْاَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لَفظَةَ ٱلذَّوقِ يَتَداوَلُها ٱلمُعتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلبَيانِ . ومَعناءا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلاغَةِ لِلِّسانِ ٱلَّتي هِيَ مُطابقَةُ ٱلكَلامِ لِلمَعنَى مِنْ جَميعِ وُجُوهِهِ بِخَواصَّ تَقَعُ لِلتَّراكِيبِ فِي اِفادةِ ذٰلِكَ . فَٱلمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلهَيْئَةَ ٱلمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى اَسالِيبِ ٱلعَرَبِ وَاَنحَاءِ مُخاطَبَاتِهِمْ وَيَنظِمُ ٱلكَلامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجْهِ جُهْدَهُ . فَاِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقامَاتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلامِ ٱلعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلكَلامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ اَمرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لَا يَكادُ يَنحُو فِيهِ غَيرَ مَنحَى ٱلبَلاغَةِ ٱلَّتي لِلعَرَبِ . وَاِنْ سَمِعَ تَرْكِيباً غَيرَ جارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بادْنَى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكرٍ اِلَّا بِمَا ٱستَفادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ . فَاِنَّ ٱلمَلَكَاتِ اِذَا ٱستَقَرَّتْ وَرَسَختْ فِي مَحالِّهَا ظَهرَتْ كَانَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ . وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلمَلَكَاتِ اَنَّ ٱلصَّوابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعرَاباً وَبَلاغَةً اَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ : كَانَتِ ٱلعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبْعِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ . وَاِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلكَلامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَختْ فَظَهَرَتْ فِي بادِي ٱلرَّأْيِ اَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ. وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا. وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ. وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ. وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ. وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ. وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

اَحيائِهِمْ.وَٱلقوانِينُ بِمَعزِلٍ عَنْ هٰذا.وَٱسْتُعِيرَ لِهَذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِندما تَرْسُخُ وتَسْتَقِرُّ اَسْمُ ٱلذَّوقِ ٱلَّذِي اَصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهلُ صِناعَةِ ٱلْبَيانِ. وَٱلذَّوقُ اِنَّما هُوَ مَوضُوعٌ لِاِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقِ بِٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِاِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَهَا ٱسْمُهُ وَاَيضاً فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ لِلِّسَانِ كَمَا اَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ . وَاِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ ٱلْاَعَاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ اِلى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ اَهلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا ٱلذَّوقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنَا اَمْرَهَا . لِاَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرَى اِلَى ٱللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ اَهلُ ٱلْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ ٱلْاَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَاِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ ٱللِّسَانِ ٱلْمَطْلُوبَةُ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّمَا حَصَّلَ اَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَاِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلِاعْتِيَادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ كَانُوا اَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ

(١) وفي نسخة : اهل المُضَر

ٱلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَماً فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا. وَكَأَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَحْيَائِهِمْ (١) حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا. فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَماً فِي ٱلنَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ. ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ. وَٱلْوَاحِدُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً. وَإِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيّاً فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وَٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ. وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة: في اجيالهم

وَلَيستْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلإِطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ اغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ افْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى اَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَانَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَالشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا ارَادَ . وَايْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ انَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ اَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ ارْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي اَنَّ مَدَارَ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا . فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِاِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ . وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ   مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ . فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ . وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلفَصلُ هُوَ كَنزُ ٱلكِتَابَةِ وَمَنبَعُهَا وَمَا رَأَيتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلأَلفَاظِ وَٱلمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلأَلفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلمَعَانِي. وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلحَدِيثِ وَٱلأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلإِجَادَةُ فِي ٱلمَعَانِي وَٱلأَلفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلاقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ. وَأَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلاجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعَالَى لِسَانًا هجَّامًا وَخَاطِرًا رَقَّامًا وَإِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةُ ٱلْأَشْيَاءِ بِعِزَّةِ حُصُولِهَا وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلْوًا وُجُودُكَ ٱلشَّيْءَ تَبْغِيهِ م طِلَابًا حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ

وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَعَاطِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلَّذِي يَعْلَمُهَا مِنْهُمْ يَرْضَى بِٱلْحَوَاشِي وَٱلْأَطْرَافِ وَيَقْنَعُ مِنْ لَآلِيهَا بِمَعْرِفَةِ مَا فِي ٱلْأَصْدَافِ . وَلَا أُرِيدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ أَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا إِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ مِمَّا قَدَّمْنَا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِكَ تَنْقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَفَائِنِهِ وَقَلَّبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعَانَ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَرِيزَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ . أَلَا تَرَى صَاحِبَ ٱلِٱجْتِهَادِ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ يَفْتَقِرُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ ٱلْأَحْكَامِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْحِسَابِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ وَٱلْمَجْهُولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكَاتِبِ إِذَا أَحَبَّ ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةِ ٱلِٱجْتِهَادِ فِي ٱلْكِتَابَةِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَنَذْكُرُهَا

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسْنَ ٱلْإِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّابِ فَإِنَّ فِيهِمْ أَدَبَ ٱلْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوَّةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْإِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلْإِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونُ مَعَ ذٰلِكَ فَدِمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْأَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلْفِطْنَةُ. وَإِنِ ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَإِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . وَنَظَرَ أَحْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَأَنْ يَكُونُ هٰذَا فِنْطَاسَ مَرْكَبٍ أَشْبَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُناجيهِ بطَرْفِكَ مِنْ بَعيدٍ   فيَفْهمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِٱلْاشارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَدِيبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ اداةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْادواتِ فهُوَ منْقُوصُ ٱلْجمالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحِسِّ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ انَّ صِناعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ اِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ .وقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ اَنْ يَتعلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَيْهِ فيقُولَ : فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ ولَا يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يفْتَقِرُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ .وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَاِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا. اَلَا تَرَى اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَاِذَا كُلِّفَ تعلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي الْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي الْمَدِيحِ دُونَ الْهِجَاءِ أَوْ فِي الْهِجَاءِ دُونَ الْمَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي الْمَرَاثِي دُونَ التَّهَانِئِ أَوْ فِي التَّهَانِئِ دُونَ الْمَرَاثِي. وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي الْمَنْثُورِ. هٰذَا ابْنُ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ الْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ الْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ابْنُ الْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى هٰذَا التَّفَاوُتِ فِي الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلْاِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ. فَاِنَّهُ لَوْ اَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِاَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا اَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْقِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ • وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَهَيَّأَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْاَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْاَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ اَوْ سِلَاحٍ اَوْ حَرْبٍ اَوْ سَيْرٍ اَوْ قِتَالٍ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ اِلَى نَعْتِهِ • وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ اَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ اِلَى عُذْرٍ اَوْ اِبْطَالِ دَعْوَى اَوْ اِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ • • • فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَاَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلْاِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتُقُ ٱلْاَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْاَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْاُمُورِ اِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْاَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ اَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ اَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَاَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَاِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ اِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ اِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ اَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلْاِطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا اَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ اَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَاِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ اِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ اَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ اَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَاِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْاَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا اَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْاَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزَارَةِ ٱلْمَوَادِّ وَصِحَّةِ ٱلِاسْتِشْهَادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَٱنْتِزَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَصَحِّ مِثَالٍ وَٱلِاطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَوَاهِدِهَا وَٱلِاضْطِلَاعِ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوَارِدِهَا . وَقَدْ كَانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غَايَةَ ٱلِاعْتِنَاءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلَا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ ٱلْكَلَامِ وَلَا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجَالِ . فَإِذَا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتَابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيَارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَوَاضِعُ ٱلِاسْتِشْهَادِ بِهِ وَسَاقَهُ ٱلْكَلَامُ إِلَى إِبْرَازِ مَا فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِاسْتِشْهَادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى مَا كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جَانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَآخِذِهِمْ وَدَوَرَانِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كَلَامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعَانِي فِي أَشْعَارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِاسْتِشْهَادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى ٱكْتُفِيَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْغَرَضِ فِي ٱلْجَوَابِ كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَا كُتْبَ إِلَّا ٱلْمَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ ‏ ‏ ‏ وَلَا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وكذلك النظر في رسائل المتقدمين دون حفظها لما في النظر فيها من تنقيح القريحة وإرشاد الخاطر وتسهيل الطرق والنسج على منوال المجيد والاقتداء بطريقة المحسن واستجلاء ما انتجته القرائح من ابكار الافكار واستحلاء ما روقته الخواطر من حياض الالفاظ واستدراك ما فات القاصر والاحتراز مما اظهره النقد ورد ما بهرجه السبك . فاما النهي عن حفظ ذلك فلئلا يكل الخاطر عما في حاصله ويستند الفكر الى ما في مودعه ويكتفي بما ليس له ويتلبس بما لم يعط كلابس ثوبي زور ....

وكذلك (النظر في كتب الامثال) الواردة عن العرب نظماً ونثراً كامثال الميداني والفضل بن سلمة الضبي وحمزة الاصبهاني وغيرهم وامثال المحدثين الواردة في اشعارهم كابي العتاهية وابي تمام والمتنبي وامثال المولدين والامثال الموضوعة على السن الحيوان للعرب وغيرهم ليستشهد بالمثل في موضعه ويورده في مكانه ويكون من وراء المعرفة باصله واول من ارسله مثلاً ومن استشهد به وذكر سببه ....

واما (التمثل بالشعر) فقد روي ان عمر تمثل يوماً بقول النابغة :

ولست بمستبق اخاً لا تلمه   على شعث اي الرجال المهذب

ثم قال : لمن هذا. فقيل له : للنابغة. فقال : ذاك اشعر شعرائكم. وسال عمر ابن عباس عن شيء فاجابه عنه فاعجبه جوابه فقال :

شِنْشِنَةٌ اعرِفُهَا مِنْ اَخزَمِ . وَاَمثَالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحَابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلاَحكَامِ ٱلسُّلطَانِيَّةِ) فَاِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِاَمْرٍ فَيَعرِفُ بِهَا كَيفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلَى حُكمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلقَضَاءِ وَٱلْحِسبَةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ اُمُورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلاِطِّلَاعِ عَلَيهَا وَٱلاِكبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَٱلاِستِكثَارِ مِنهَا . يُنفِقُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ وَيَسْلُكُ فِي ٱلْوُصُولِ اِلَى تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ بِذٰلِكَ ٱلْجَوَادِ وَاِلَّا فَلْيَعْلَمْ اَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَاَمَّا ٱلْاُمُورُ ٱلخَاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَاِنَّهَا مِنَ ٱلْمُكَمِّلَاتِ لِهٰذَا ٱلفَنِّ وَاِنْ لَمْ يَضْطَرَّ اِلَيهَا ذُو ٱلذِّهْنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلقَرِيحَةِ ٱلْمُطَاوِعَةِ وَٱلفِكْرَةِ ٱلْمُنْقَحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلنُّجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ ٱلْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ اَزِمَّةِ ٱلْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَاَنَا اُشِيرُ ٱلْآنَ اِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلفَائِدَةِ بِهِ وَاَنَّ ٱلاَدِيبَ وَٱلْكَاتِبَ ٱلعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ اَدْنَى رُتَبِ ٱلْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى ٱسْتَحْسَنَهُ اَوْ لَفظٍ ٱسْتَحْلَاهُ اَوْ تَرْكِيبٍ ٱسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْاِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

يَا اَبَا جَعْفَرٍ اَتَحْكُمُ فِي ٱلشِّعْرِ م وَمَا فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إِلَّا عَلَى ٱلصَّرْ   فِيِّ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ   مْ شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَّ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجَدتُّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي   يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعَلَّلُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ

الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللاَّئِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلإِنْشَاءِ وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يَفْرِقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتُهُ وَانْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَانْ يَجْعَلَ ٱلْأَلْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . إِذِ ٱلْمَعَانِي إِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا أَلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَامَّا جَعْلُ ٱلْأَلْفَاظِ مُتَكَلَّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ انْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ إِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ انْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : إِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ انْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَيُعْنَوْنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاَعْجَمِيُّ وَاَفْصَحَ اِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَاَفْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ اِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْاصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ اِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ اِذَا ٱنْتَهَيْتُ اِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غيري. ومبلغ الشيء منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضاً. ويقال: الدنيا بلاغ لانها تؤديك الى الآخرة. والبلاغ ايضاً التبليغ . ومنه : هذا بلاغ للناس اي تبليغ. ويقال: بلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً كما يقال نبل نبالة اذا صار نبيلاً. وكلام بليغ وبلغ (بالفتح) كما يقال وجيز ووجز . ورجل بلغ (بالكسر) يبلغ ما يريد وفي مثل لهم: احمق بلغ . ويقال : ابلغت في الكلام اذا اتيت بالبلاغة فيه كما تقول : ابرحت اذا اتيت بالبرحاء وهو الامر الجسيم . والبلاغة من صفة المتكلم فلهذا لا يجوز ان يسمى الله عز وجل بانه بليغ اذ لا يجوز ان يوصف بصفة كان موضوعها للكلام وتسميتنا المتكلم بانه بليغ توسع وحقيقته ان كلامه بليغ كما تقول : فلان رجل محكم وتعني ان افعاله محكمة . وكذلك كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة

اما الفصاحة فقد قال قوم انها من قولهم : افصح فلان عما في نفسه اذا اظهره . والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب افصح الصبح اذا اضاء وفصح ايضاً . وافصح الاعجمي اذا ابان بعد ان لم يكن يبين وفصح اللحان اذا عبر عما في نفسه واظهره على جهة الصواب دون الخطإ . واذا كان الامر على هذا فالفصاحة

وَٱلبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ اِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اِنَّمَا هُوَ ٱلاِبَانَةُ عَنِ ٱلمَعْنَى وَٱلاِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: ٱلفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلبَيَانِ . فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ اَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا اِذَا كَانَتِ ٱلفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ اِقَامَةِ ٱلحُرُوفِ . وَقِيلَ: زِيَادٌ ٱلأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ اِقَامَةِ ٱلحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلحِمَارِ بِٱلهِمَارِ فَهُوَ اَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلفَصَاحَةُ وَٱلبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِاَنَّ ٱلآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلمَعْنَى . وَٱلبَلَاغَةُ اِنَّمَا هِيَ اِنْهَاءُ ٱلمَعْنَى فِي ٱلقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى اَنَّ ٱلفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلبَلَاغَةُ تَتَنَاوَلُ ٱلمَعْنَى اَنَّ ٱلبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا اِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ اِلَى ٱلمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا اَنْ يُسَمَّى ٱلكَلَامُ ٱلوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا اِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلِّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ اَحَدِ ٱلأِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ اِيضَاحِ ٱلمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ اِلَى اَنَّ ٱلكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : اِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى اَلسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَاِذَا

مُحِصُوا بِالْإبتلاء قلَّ الدَّيَّانُونَ . وَمثلُ ٱلمنظوم قولُ ٱلشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ ٱلْخطِّيِّ فوقَ رُؤُوسِهِمْ   كَمَا اشْرَقَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ ٱلْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ٱلْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا أَنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدتَّ إِلَى ٱلْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَٱلرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ ٱلْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ ٱلْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ ٱلصَّدِّ . وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ بِقَوْلِ ٱلْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : ٱلشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَٱلْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَٱللِّسَانُ هَا هُنَا ٱلْكَلَامُ . وَٱلرَّزِينُ ٱلَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ . وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ . وَإِنَّمَا قَصَدتُّ فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ أُطِلِ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى ٱلْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ ولَمْ يزَلِ ٱلعُلَماءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلوَقْتِ وحَدِيثِهِ يُكثِرُونَ ٱلقَولَ فِيهِ وَٱلبَحثَ عنهُ ولَمْ اَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيهِ اِلَّا ٱلقَلِيلَ . وغايةُ مَا يُقالُ فِي هٰذا ٱلبَابِ اَنَّ ٱلفَصاحةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وٱلبَيانُ فِي اَصلِ ٱلوَضعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقالُ: اَفصحَ ٱلصُّبحُ اِذَا ظهرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يقِفُونَ عِندَ ذٰلِكَ وَلَا يَكشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلقَولِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقةُ ٱلفَصاحَةِ لِاَنَّهُ يُعتَرَضُ عَلَيهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِاعتِراضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفظُ ظاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. (ٱلوَجهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفظُ ٱلفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلاِضَافَاتِ اِلَى ٱلاَشخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِندَ هٰذَا وَغَيرُ فَصِيحٍ عِندَ هٰذَا . وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِندَ ٱلجَمِيعِ لَاخِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلاَحوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَاهِيَ لَمْ يَبقَ فِي ٱللَّفظِ ٱلَّذِي يَختَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلوَجهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنهُ اِذَا جِيءَ بِلَفظٍ قَبِيحٍ يَنبُوعَنهُ ٱلسَّمعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلفَصَاحَةَ وَصفُ حُسنٍ لِلَّفظِ لَا وَصفُ قُبحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِاعتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَولِ ٱلقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفظَ ٱلفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلبَيِّنُ مِنْ غَيرِ تَفصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفتُ عَلَى اَقوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلبَابِ مَلَكَتنِي ٱلحَيرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثبُتْ عِندِي مِنهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيهِ وَلِكَثرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِّقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَأَعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلْبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى ٱسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِٱعْتِبَارِ أَلْفَاظِهَا . وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَٱخْتَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوُا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ سَبَبُ ٱسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلْفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلْحَسَنُ . فَإِنْ قِيلَ : مِنْ أَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ أَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : إِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلْأَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلْقَبِيحُ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلْبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلْفَرَسِ . وَٱلْأَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَأَنَّ لَفْظَةَ ٱلْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفَظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلْمُزْنَةِ

وَٱلدِّيمَةِ وما جرى مجراهما مألوفتي ٱلِاسْتِعْمَالِ وترى لفظ ٱلْبُعَاقِ وما جرى مجراه متروكاً لا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنِ ٱسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يستعمله جاهل بحقيقة ٱلفصاحة او ذوقه غير ذوقٍ سليمٍ وَإِنْ كان عربياً محضاً من ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حقيقة ٱلشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وجب ٱلْوُقُوفُ عِنْدَهَا ولم يُعَرَّجْ على ما خرج عنها . وَإِذْ ثَبَتَتْ أَنَّ ٱلْفَصِيحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هو ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كان ظاهراً بيّناً لِأَنَّهُ مألوف ٱلِاسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كان مألوف ٱلِاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِٱلسَّمْعِ . وَٱلَّذِي يُدْرَكُ بِٱلسَّمْعِ إِنَّمَا هو ٱللَّفْظُ لِأَنَّهُ صوتٌ يأتلف عن مخارج ٱلْحُرُوفِ فما ٱسْتَلَذَّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهُ فهو ٱلْحَسَنُ وما كرهه فهو ٱلْقَبِيحُ وَٱلْحَسَنُ هو ٱلْمَوْصُوفُ بِٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْقَبِيحُ غير موصوفٍ بفصاحةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وقد مثّلت ٱلْمِثَالَ ٱلْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْبُعَاقِ ولو كانت ٱلْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يرجع إِلَى ٱلْمَعْنَى لَكَانَتْ هذه ٱلْأَلْفَاظُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عليه سواءً ليس منها حسنٌ ومنها قبيحٌ . ولمّا لم يكن كذلك علمنا انها تخصّ ٱللَّفْظَ دون ٱلْمَعْنَى . وليس لقائلٍ ههنا ان يقول لا لفظ إِلَّا بمعنًى فكيف فصلت انت بين ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى . قلتُ : لم افصل بينهما وَإِنَّمَا خصصتُ ٱللَّفْظَ بصفةٍ هي له وَٱلْمَعْنَى يجيء فيه ضمناً وتبعاً

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعلَمْ انَّهُ يَحتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلى ثَلَاثَةِ اَشيَاءَ : (ٱلأَوَّلُ) مِنهَا ٱختِيَارُ ٱلأَلْفَاظِ ٱلمُفرَدَةِ . وَحُكمُ ذٰلِكَ حُكمُ ٱللَّآلِئِ ٱلمُبدَّدَةِ فَإِنَهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنتَقَى قَبلَ ٱلنَّظمِ . (ٱلثَّانِي) نَظمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُختِهَا فِي ٱلمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكمُ ذٰلِكَ حُكمُ ٱلعِقْدِ ٱلمَنظُومِ فِي ٱقتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُختِهَا ٱلمُشَاكِلَةِ لَهَا . (ٱلثَّالِثُ) ٱلغَرَضُ ٱلمَقصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلكَلَامِ عَلَى ٱختِلَافِ اَنوَاعِهِ وَحُكمُ ذٰلِكَ حُكمُ ٱلمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلعِقْدُ ٱلمَنظُومُ فَتَارَةً يُجعَلُ اِكلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلعُنُقِ وَتَارَةً يُجعَلُ شَنْفًا فِي ٱلأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَوَاضِعِ هَيئَةٌ مِنَ ٱلحُسنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشيَاءَ لَا بُدَّ لِلخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلأَصلُ ٱلمُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظمِ وَٱلنَّثرِ . فَٱلأَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلمَذكُورَةِ هُمَا ٱلمُرَادُ بِٱلفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلَاثَةُ بِجُملَتِهَا هِيَ ٱلمُرَادُ بِٱلبَلَاغَةِ. وَهٰذَا ٱلمَوضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظمِ وَٱلنَّثرِ فَكَيفَ ٱلجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمِنَ

ٱلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ. وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ: كُلُّ ٱلْأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا. وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا. فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً. وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإنسَ فتارةً يكونُ حسناً وتارةً يكونُ قبيحاً . وعلى هذا فانَّ احد قِسمي ٱلوحشيّ وهو ٱلغريبُ ٱلحسنُ يختلفُ بٱختلافِ ٱلنسبِ وٱلإضافاتِ . وامَّا ٱلقسمُ ٱلآخرُ مِنَ ٱلوحشيّ ٱلذي هو قبيحٌ فانَّ ٱلناسَ في ٱستقباحهِ سواءٌ ولا يختلفُ بهِ عربيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ متحضّرٌ. واحسنُ ٱلالفاظِ ما كانَ مألوفاً متداولاً لانَّهُ لم يكنْ مألوفاً متداولاً الَّا لمكانِ حسنهِ وقد تقدَّمَ ٱلكلامُ على ذلكَ في بابِ ٱلفصاحةِ . فانَّ اربابَ ٱلخطابةِ وٱلشعرِ نظروا الى ٱلالفاظِ ونقَّبوا عنها ثمَّ عدلوا الى ٱلاحسنِ منها فٱستعملوهُ وتركوا ما سواهُ وهوَ ايضاً يتفاوتُ في درجاتِ حُسنهِ فٱلالفاظُ اذن تنقسمُ ثلاثةَ اقسامٍ : قسمانِ حسنانِ وقسمٌ قبيحٌ . فٱلقسمانِ ٱلحسنانِ احدُهما ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلاوَّلُ وٱلآخرُ مِنَ ٱلزمنِ ٱلقديمِ الى زمانِنا هذا ولا يُطلقُ عليهِ انَّهُ وحشيٌّ. وٱلآخرُ ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلاوَّلُ دونَ ٱلآخرِ ويختلفُ في ٱستعمالهِ بٱلنسبةِ الى ٱلزمنِ واهلهِ وهذا هوَ ٱلذي لا يُعابُ ٱستعمالُهُ عندَ ٱلعربِ لانَّهُ لم يكنْ عندهُم وحشياً وهوَ عندَنا وحشيٌّ

ولا يسبقْ وهمُكَ ايُّها ٱلمتأمّلُ الى قولِ ٱلقائلِ ٱلذي غلبَ عليهِ غلظُ ٱلطبعِ وفجاجةُ ٱلذهنِ بانَّ ٱلعربَ كانتْ تستعملُ مِنَ ٱلالفاظِ كذا وكذا فهذا دليلٌ على انَّهُ حسنٌ . بل ينبغي انْ تعلمَ انَّ ٱلذي نستحسنُهُ نحنُ في زمانِنا هذا هوَ ٱلذي كانَ عندَ ٱلعربِ مستحسناً وٱلذي نستقبحُهُ هوَ ٱلذي كانَ عندهُم مستقبحاً. وٱلاستعمالُ ليسَ بدليلٍ على ٱلحسنِ فانَّا نحنُ نستعملُ ٱلآنَ مِنَ ٱلكلامِ ما

لَيس بِحَسَنٍ وإِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهُ لِضَرُورَةٍ فَلَيس ٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ ٱلْأَحْوَالِ . وَهٰذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ بِغَيْرِ ٱلْعَارِفِ بِمَسَالِكِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صِنَاعَةَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَمَا يَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ ٱلْكُلْفَةِ فِي صَوْغِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ فِي أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ :

لَا يَعْرِفُ ٱلْحُزْنَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ ۝ وَلَا ٱلصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : بِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ. قَوْلٌ فَاسِدٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ. فَإِنَّ ٱسْتِحْسَانَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِقْبَاحَهَا لَا يُؤْخَذُ بِٱلتَّقْلِيدِ مِنَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لَهُ خَصَائِصُ وَهَيْئَاتٌ وَعَلَامَاتٌ إِذَا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْنُهُ مِنْ قُبْحِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي نُقَلِّدُ ٱلْعَرَبَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّمَا هُوَ ٱلِٱسْتِشْهَادُ بِأَشْعَارِهَا عَلَى مَا يُنْقَلُ مِنْ لُغَتِهَا وَٱلْأَخْذُ بِأَقْوَالِهَا فِي ٱلْأَوْضَاعِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي رَفْعِ ٱلْفَاعِلِ وَنَصْبِ ٱلْمَفْعُولِ وَجَرِّ ٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ وَجَزْمِ ٱلشَّرْطِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ وَمَا عَدَاهُ فَلَا . وَحُسْنُ ٱلْأَلْفَاظِ وَقُبْحُهَا لَيْسَ إِضَافِيًّا إِلَى زَيْدٍ دُونَ عَمْرٍو أَوْ إِلَى عَمْرٍو دُونَ زَيْدٍ لِأَنَّهُ وَصْفٌ ذَوْقِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِٱلْإِضَافَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ مَثَلًا حَسَنَةٌ عِنْدَ ٱلنَّاسِ كَافَّةً مِنَ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهَا . وَكَذٰلِكَ لَفْظَةُ ٱلْبُعَاقِ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ عِنْدَ ٱلنَّاسِ كَافَّةً مِنَ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتْهَا ٱلْعَرَبُ لَا يَكُونُ ٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ ٱلْقُبْحِ وَلَا يُلْتَفَتُ إِذَنْ إِلَى ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا وَيُغَلَّظُ لَهُ ٱلنَّكِيرُ حَيْثُ ٱسْتَعْمَلَهَا

فَلَا تَظُنَّ اَنَّ اَلْوَحْشِيَّ مِنَ اَلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ اَلنُّطقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ اَلْغَرِيبُ اَلَّذِي يَقِلُّ اَسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ اَلْكَرَاهَةَ. وَذٰلِكَ فِي اَللَّفْظِ عَيْبَانِ: (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ غَرِيبُ اَلِاسْتِعْمَالِ (وَالْآخَرُ) اَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى اَلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى اَلذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ اَللَّفْظُ بِهٰذِهِ اَلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ اَلَّذِي يُسَمَّى اَلْوَحْشِيَّ اَلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى اَيْضًا اَلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي اَلْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا اَجْهَلُ اَلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا اَلْفَنِّ اَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا هٰذَا اَلنَّوْعُ مِنَ اَلْأَلْفَاظِ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ لَكَ اَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ اَلنُّطْقُ بِهِ. وَسَاَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ اَلْحَمَاسَةِ:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا ... جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ اَلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ اَلْأَلْفَاظِ اَلْمُنْكَرَةِ اَلْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلّٰهِ اَلْعَجَبُ اَلَيْسَ اَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا اَلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا اَخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا اَلْمَوْضِعِ: اَحَدُهُمَا اَنَّهُ اَسْتَعْمَلَ اَلْقَبِيحَ. وَالْآخَرُ اَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ اَسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ اَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِأَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اَطْلَخَمَّ اَلْأَمْرُ وَاَنْبَعَثَتْ ... عَشْوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْسًا دَهَارِيسَا

فلفظة (اطلخم) من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة (دهاريس) ايضا . وعلى هذا ورد قوله من ابيات يصف فرسا من جملتها :

نعم متاع الدنيا حباك به　　اروع لا جيدر ولا جبس

فلفظة (جيدر) غليظة . واغلظ منها قول ابي الطيب المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم　　شيم على الحسب الاغر دلائل

فان لفظة (جفخ) مرة الطعم واذا مرت على السمع اقشعر منها وابو الطيب في استعمالها كاستعمال تابط شرا لفظة جحيش . فان تابط شرا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما اشرنا فيما تقدم . وكذلك ابو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي جفخت فان معناها فخرت والجفخ الفخر يقال : جفخ فلان اذا فخر . ولو استعمل عوضا عن جفخت فخرت لاستقام البيت وحظي في استعماله بالاحسن . وما اعلم كيف يذهب هذا وامثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء . وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الالفاظ هو الوحشي الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته . وهذه الامثلة دليل على ما اوردناه . والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على الغريب القبيح . واما الحضري فانه على استعمال القسمين معا وهو في احدهما اشد ملامة منه في الآخر

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ اَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ اَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلِٱسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَٱلْعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا اَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِاَنَّا إِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلِٱسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْإِبْهَامُ بِاَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ اَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرِكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

إنَّ ذلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وضعِ ٱللُّغةِ لِأنَّ ٱللُّغةَ إنّما هِيَ وضعُ ٱلألفاظِ فِي دَلالَتِها على ٱلمعانِي اي وضعُ ٱلاسماءِ على ٱلمسمياتِ لِتكونَ مُنبِئةً عنها عِندَ إطلاقِ ٱللفظِ وَٱلاشتراكِ لا بيانَ فِيهِ وإنّما هُوَ ضِدُّ ٱلبيانِ. لكنَّ طرِيقَ ٱلبيانِ انْ يُجعلَ احدُ ٱلمعنيَيْنِ فِي ٱللفظِ ٱلمشتركِ حقيقةً وَٱلآخرُ مجازِيا. فإذا قُلنا: هٰذِهِ كلِمةٌ. واطلقنا ٱلقولَ فُهِمَ مِنهُ ٱللفظةُ ٱلواحِدةُ. وإذا قيّدنا ٱللفظَ فقُلنا: هٰذِهِ كلِمةٌ شاعِرةٌ. فُهِمَ مِنهُ ٱلقَصِيدةُ ٱلمقصّدةُ مِنَ ٱلشِّعرِ وهِيَ مجموعُ كلِماتٍ كثِيرةٍ. ولَوْ اطلقنا مِنْ غيرِ تقيِيدٍ وارَدنا ٱلقصِيدةَ مِنَ ٱلشِّعرِ لَمّا فُهِمَ مُرادُنا ٱلبتّةَ. هٰذا خُلاصةُ ما ذهبَ إليهِ مَنْ يُنكِرُ وُقُوعَ ٱللفظِ ٱلمشتركِ فِي ٱلمعنيَيْنِ حقِيقةً. وفِي ذٰلِكَ ما فِيهِ. وسأُبيِّنُ ما يدخُلُهُ مِنَ ٱلخللِ فأقولُ فِي ٱلجوابِ عَنْ ذٰلِكَ ما ٱستخرجتُهُ بِفكرِي ولَمْ يكُنْ لِأحدٍ فِيهِ قولٌ مِنْ قبلِي وهُوَ: امّا قولُكَ: إنَّ فائدةَ وضعِ ٱللُّغةِ إنّما هُوَ ٱلبيانُ عِندَ إطلاقِ ٱللفظِ وَٱللفظُ ٱلمشتركُ يُخِلُّ بِهٰذِهِ ٱلفائدةِ. فهٰذا غيرُ مُسلَّمٍ بلْ فائدةُ وضعِ ٱللُّغةِ هُوَ ٱلبيانُ وَٱلتحسِينُ

(امّا ٱلبيانُ) فقدْ وفى ٱلاسماءَ ٱلمتبايِنةَ ٱلّتِي كلُّ ٱسمٍ واحِدٍ دلَّ على مُسمًّى واحِدٍ. فإذا أُطلِقَ ٱللفظُ فِي هٰذِهِ ٱلاسماءِ كانَ بيِّنًا مفهومًا لا يحتاجُ إلى قرِينةٍ ولَوْ لَمْ يضعِ ٱلواضِعُ مِنَ ٱلاسماءِ شيئًا غيرَها لَكانَ كافِيًا فِي ٱلبيانِ

(وامّا ٱلتحسِينُ) فإنَّ ٱلواضِعَ لِهٰذِهِ ٱللُّغةِ ٱلعربيّةِ ٱلّتِي هِيَ احسنُ ٱللُّغاتِ نظرًا إلى ما يحتاجُ إليهِ اربابُ ٱلفصاحةِ وَٱلبلاغةِ فِيما يصوغونهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَاَى اَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصَاعِدًا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٠٤ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْفُصَحَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوَّلُ) : اَنْ لَا يَتَرَكَّبَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعُخْعُخِ) وَهُوَ نَبْتٌ . سُئِلَ اَعْرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعُخْعُخَ . وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (اَلثَّانِي) : اَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقَلٌ . (اَلثَّالِثُ) :

أنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ : خَنْدَرِيسٍ . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : حِدْ عَنْ ذَا ٱلْمَرْءِ . وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ أَوْسَطُهَا وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ إِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَحَرْفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلِٱبْتِدَاءِ . أَمَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ ٱللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ أَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (ٱلرَّابِعُ) : أَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : ٱلْإِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْأَسَدِ . فَهٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا ٱلطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا إِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللُّغَةِ . (ٱلْخَامِسُ) : أَنْ لَا يَكُونَ مَبْذُولًا وَذٰلِكَ نَحْوُ أَنْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ أَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (ٱلسَّادِسُ) : أَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرِكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ . فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلْإِهَانَةَ . فَلَوْ كَانَ فِي ٱلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ لَكَانَ ٱللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ ٱللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَأَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ . (ٱلْأَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْمُفْرَدِ لِأَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (ٱلثَّانِي) : أَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضَعْفِ ٱلتَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جزا ربُّهُ عنّي عديَّ بنَ حاتمٍ　　جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقدْ فعلْ

فإنّهُ خالفَ القياسَ في إعادةِ الضميرِ في (ربّهِ) إلى عديٍّ وهوَ متأخرٌ لفظاً ومعنًى . والقاعدةُ العربيّةُ أنْ يعودَ الضميرُ على ما قبلَهُ أوْ على ما بعدَهُ لفظاً لا معنًى . (الثالثُ) : أنْ يسلمَ مِنْ تنافرِ الكلمةِ وذلكَ أنْ تكونَ الكلمةُ حالَ الإفرادِ غيرَ متنافرةٍ فإذا رُكّبتْ حصلَ التنافرُ نحوُ قولِهِ :

وقبرُ حربٍ (١) بمكانٍ قفرُ　　وليسَ قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

قيلَ : إنَّ هذا البيتَ لا يُمكنُ إنشادُهُ في الغالبِ ثلاثَ مرّاتٍ متواليةٍ إلّا ويغلطُ المُنشِدُ فيهِ لأنَّ نفسَ اجتماعِ الكلامِ والقُربَ في المخارجِ يُحدِثانِ ثقلاً . وإذا كانَ التنافرُ في حروفِ الكلمةِ فهوَ راجعٌ إلى عدمِ فصاحةِ المفردِ ولا يسلمُ المُركّبُ مِنَ التنافرِ متى تسلمُ مُفرداتُهُ كقولِ أبي تمّامٍ :

كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحْهُ والورى　　معي وإذا ما لُمتُهُ لُمتُهُ وحدي

فالتنافرُ فيهِ مِنْ وجهِ تكرارِ (أمدحْهُ) لا مِنْ وجهِ أنَّ حروفَ (أمدحْهُ) متنافرةٌ لاجتماعِ حرفَي الحلقِ . (الرابعُ) : أنْ يسلمَ مِنَ التعقيدِ وهوَ إيرادُ كلامٍ خفيِّ الدلالةِ على معناهُ وهوَ مِنْ جهةِ اللفظِ ومِنْ جهةِ المعنى . فمِنْ جهةِ اللفظِ كتأخيرِ الألفاظِ وتقديمِها على مواضعِها وحصولِ الفصلِ إذْ ذاكَ بينَ الأشياءِ المُتلازمةِ كقولِ الفرزدقِ يمدحُ إبراهيمَ خالَ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

اَلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا   وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الَّا ابن اختهِ وهو هشام المملَّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى: اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن واتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسرٌ

ذلكَ . (الخامسُ) أنْ يسلمَ مِنَ التَّكرارِ الموجبِ في الثِّقلِ كتكرارِ اللَّفظةِ ذاتِها وتوالي الإضافاتِ والصِّفاتِ ولا يُخِلُّ بالفصاحةِ قطعًا تكرارُ اللَّفظةِ للتَّوكيدِ وإنَّما يُعابُ قُبحُ التَّكرارِ بلا فائدةٍ كقولِ بعضِهِم :

كُنْتُ كُنْتُ كتمتُ السِّرَّ كُنْتُ كما
كُنَّا وكُنْتَ ولكِنْ ذاكَ لَمْ يَكُنِ

فجاءتِ الحروفُ قلِقةً مكدودةً غيرَ متمكّنةٍ في مواضعِها . (وتتابُعُ الإضافاتِ) مِثلُ قولِ أبي فائدٍ :

حمامةَ جرعا حومةِ الجندلِ اسجعي فأنتِ بمرأى مِن سُعادَ ومَسمعِ (١)

ففيهِ إضافةُ حمامةٍ إلى جرعا وجرعا إلى حومةٍ وحومةٍ إلى الجندلِ . وليسَ هذا بفصيحٍ مأنوس

(وتوالي الصِّفاتِ) ذكرَهُ الطَّيِّبيُّ ذلكَ ممَّا يُحدِثُ في الكلامِ ثِقلًا واستشهدَ على ذلكَ بقولِ المتنبِّي :

دانٍ بعيدٌ محبٌّ مبغضٌ بهجٌ أغرُّ حلوٌ ممرٌّ ليِّنٌ شرِسُ

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ • وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى • أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ • فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْدِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ) • فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ • وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاءٌ . وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهِمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيْضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذَٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيْسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ أَهْلِكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فإمّا أنْ يكونَ قائلُها أشعرَ مِنْ جميعِ ٱلنّاسِ وإمّا أنْ يكونَ جميعُ ٱلنّاسِ أشعرَ مِنْهُ . ونحنُ نفهمُ معانِيَ هذهِ ٱلقصيدةِ بأسرِها لِعادتِنا لِسماعِ مِثْلِها لا لِأنّا أعرفُ بِٱلكلامِ مِنَ ٱلأعرابِ . ومِمّا يُؤيِّدُ ما قُلْنا مِنْ أنّ ٱلبلاغةَ إنّما هِيَ إيضاحُ ٱلمعنى وتحسينُ ٱللّفظِ قولُ بعضِ ٱلحكماءِ : ٱلبلاغةُ تصحيحُ ٱلأقسامِ وٱختيارُ ٱلكلامِ إلى غيرِ ذٰلِكَ . وقالَ مُحمّدُ بنُ ٱلحنفيّةِ : ٱلبلاغةُ قولٌ يضطرُّ ٱلعقولَ إلى فهمِهِ بأسهلِ ٱلعبارةِ . فقولُهُ : (يضطرُّ ٱلعقولَ إلى فهمِهِ) عبارةٌ عن إيضاحِ ٱلمعنى . وقولُهُ : (بِأسهلِ ٱلعبارةِ) تنبيهٌ على تسليسِ ٱللّفظِ وتركِ تنقيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قالَ أعرابيٌّ : ٱلبلاغةُ ٱلتّقرّبُ مِنَ ٱلبعيدِ وٱلتّباعدُ مِنَ ٱلكلفةِ وٱلدّلالةُ بقليلٍ على كثيرٍ . قالَ عبدُ ٱلحميدِ بنُ يحيى : ٱلبلاغةُ تقريرُ ٱلمعنى في ٱلأفهامِ مِنْ أقربِ وجوهِ ٱلكلامِ . قالَ ٱبنُ ٱلمعتزِّ : ٱلبلاغةُ ٱلبلوغُ إلى ٱلمعنى ولَمْ يطُلْ سفرُ ٱلكلامِ . قالَ سهلُ بنُ هارونَ : ٱلبيانُ ترجمانُ ٱلعقولِ وروضُ ٱلقلوبِ . وقالَ أيضاً : ٱلعقلُ رائدُ ٱلرّوحِ وٱلعلمُ رائدُ ٱلعقلِ وٱلبيانُ ترجمانُ ٱلعلمِ . قالَ إبرهيمُ ٱلإمامُ : يكفِي مِنَ ٱلبلاغةِ أنْ لا يُؤتَى ٱلسّامعُ مِنْ سوءِ فهمِ ٱلنّاطقِ ولا يُؤتَى ٱلنّاطقُ مِنْ سوءِ فهمِ ٱلسّامعِ . قالَ ٱلعتابيُّ : ٱلبلاغةُ مدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ إِذَا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ إِذَا طَالَ . قَالَ أَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ إِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَإِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلِٱقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ ٱلْإِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْإِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ إِيصَالُ ٱلْمَعْنَى إِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ إِيجَازُهُ . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ إِعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَأَعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : إِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وَقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : إِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْمَقْصَدُ إِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِإِبْرٰهِيمَ ٱلْإِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْإِصَالَةُ

(١) لا يجوز ذلك الّا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذمّ

قالَ إسحاقُ بنُ حسَّانٍ: لَمْ يُفسِّرْ احدٌ ٱلبلاغةَ تفسيرَ ٱبنِ ٱلمقفعِ اذْ قالَ: ٱلبلاغةُ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرةٍ: فمنها ما يكونُ في ٱلاشارةِ. ومنها ما يكونُ في ٱلحديثِ. ومنها ما يكونُ في ٱلاستماعِ ومنها ما يكونُ في ٱلاحتجاجِ. ومنها ما يكونُ شعرًا. ومنها ما يكونُ ٱبتداءً. ومنها ما يكونُ جوابًا. ومنها ما يكونُ سجعًا. ومنها ما يكونُ خطبًا. ومنها ربَّما كانتْ رسائلَ. فغايةُ (١) هذهِ ٱلأبوابِ ٱلوحيُ فيها وٱلاشارةُ الى ٱلمعنى ابلغُ وٱلايجازُ هوَ ٱلبلاغةُ. فٱلسُّكوتُ يُسمَّى بلاغةً مجازًا وهوَ في حالةٍ لا ينجعُ فيها ٱلقولُ ولا ينفعُ فيها اقامةُ ٱلحججِ. امَّا عندَ جاهلٍ لا يفهمُ ٱلخطابَ او عندَ وضيعٍ لا يرهبُ ٱلجوابَ. او ظالمٍ سليطٍ يحكمُ بٱلهوى ولا يرتدعُ بكلمةِ ٱلتقوى وإذا كانَ ٱلكلامُ يُعرى منَ ٱلخيرِ او يجلبُ ٱلشرَّ فٱلسُّكوتُ اولى كما قالَ ابو ٱلعتاهيةِ:

مَا كُلُّ نُطقٍ لهُ جوابٌ ... جوابُ ما يُكرهُ ٱلسُّكوتُ

وربَّما كانَ صمتُكَ في حالٍ ارفقَ منْ كلامِكَ ولهُ وجهٌ آخرُ وهوَ قولُهمْ: كلُّ صامتٍ ناطقٌ منْ جهةِ ٱلدَّلالةِ. وذلكَ انَّ دلائلَ ٱلصَّنعةِ في جميعِ ٱلاشياءِ واضحةٌ. وٱلموعظةُ فيها قائمةٌ. وقدْ قالَ ٱلرَّقاشيُّ: سَلِ ٱلارضَ منْ شقَّ انهارَكِ وغرسَ اشجارَكِ وجنى ثمارَكِ. فانْ لمْ تجبْكَ حوارًا اجابتْكَ ٱعتبارًا. وقولُ ٱبنِ ٱلمقفعِ: (ربَّما كانتِ ٱلبلاغةُ بٱلاستماعِ) فلأنَّ ٱلمخاطَبَ اذا لمْ يحسنِ ٱلاستماعَ لمْ

(١) وفي نسخة: عامّة

يَقِفُ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ . وَيُؤْيِسُ مَصْنَعُهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ . أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِانْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ . وَحُسْنُ ٱلصَّوَابِ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرْكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جُمِعَ ٱلْكَلَامُ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْنَابًا لَا رُؤُسًا .

وَاَجسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : اَلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : اَلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمْعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَاِلْفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ ووُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ اَلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ . وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ . وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ . وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ . (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْاِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ . وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ اَلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رَيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَاءِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرُبَّانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجَيبُهُ ٱلْمَعرِفَةُ وَكُمَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تُكْشَفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يَسْتَعْجِمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يَسْتَبْهِمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَالْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتُطْلِقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ ٱللُّكْنَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ.
(ثُمَّ قَالَ): اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ ٱنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَإِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوَّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلْاصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي: ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بِٱلبلاغةِ. هُوَ ٱلَّذِي يدلُّ بلفظِهِ على مَعناهُ ٱللُّغويّ أو ٱلعُرفيّ أو ٱلشَّرعيّ . ثُمَّ تجدُ لذلك ٱلمعنى دلالةً ثانيةً على ٱلمعنى ٱلمقصودِ ٱلَّذي يُريدُ ٱلمتكلِّمُ إثباتَهُ أو نفيَهُ فهُناك ألفاظٌ ومعانٍ أُوَلٌ ومعانٍ ثوانٍ . فٱلمعاني ٱلأُوَلُ هِيَ مدلولاتُ ٱلتَّراكيبِ وٱلألفاظِ ٱلَّتي تُسمَّى فِي عِلمِ ٱلنَّحوِ أصلَ ٱلمعنى . وٱلمعاني ٱلثَّواني ٱلأغراضُ ٱلَّتي يُساقُ لها ٱلكلامُ . ولِذا قِيلَ : مُقتضى ٱلحالِ هُوَ ٱلمعنى ٱلثَّاني . كَرَدِّ ٱلإنكارِ وَدفعِ ٱلشَّكِّ مثلًا إذا قُلنا : إنَّ زيدًا قائمٌ. فٱلمعنى ٱلأوَّلُ هو ٱلقيامُ ٱلمؤكَّدُ وٱلمعنى ٱلثَّاني ردُّ ٱلإنكارِ وَدفعُ ٱلشَّكِّ . وَإذا قُلنا :هوَ أسدٌ فِي صُورةِ ٱلإنسانِ. فٱلمعنى ٱلأوَّلُ هُوَ مدلولُ هذا ٱلكلامِ وَٱلمعنى ٱلثَّاني هُوَ أنَّهُ شُجاعٌ . فٱلمعنى ٱلثَّاني هوَ ٱلَّذِي يُرادُ إيرادُهُ فِي ٱلطُّرقِ ٱلمُختلفةِ وٱلمفهومُ مِن تِلكَ ٱلطُّرقِ هُوَ ٱلمعنى ٱلأوَّلُ. وَتسميتُهُ بِٱلمعنى ٱلثَّاني لِكَونِ ٱللَّفظِ دالًّا عليهِ بواسطةِ ٱلمعنى ٱلأوَّلِ. فَدلالةُ ٱلمعنى ٱلأوَّلِ على ٱلثَّاني عقليَّةٌ قطعًا وَأمَّا دلالةُ ٱللَّفظِ على ٱلمعنى ٱلأوَّلِ فقد تكونُ وَضعيَّةً وقد تكونُ عقليَّةً . وقد تُسمَّى ٱلمعاني ٱلأُوَلُ بِٱلخُصوصيَّاتِ وَٱلكيفيَّاتِ ٱلزَّائدةِ على أصلِ ٱلمعنى وَبِٱلصُّورِ وَٱلخواصِّ وَٱلمزايا مجازًا. ثُمَّ إنَّهُم سمَّوا ترتيبَ ٱلمعاني ٱلأُوَلِ وَكذا ٱلمعاني ٱلأُوَلَ ألفاظًا. وَفضيلةَ ٱلكلامِ بِٱعتبارِ هذا ٱلتَّرتيبِ لِكَونِ ٱلمعنى ٱلأوَّلِ محلَّ ٱلفضيلةِ لِأنَّ ترتيبَ ٱلمعاني ٱلأصليَّةِ فِي ٱلنَّفسِ ثُمَّ ترتيبَ ٱلألفاظِ فِي ٱلنُّطقِ على حذوِها على وجهٍ ينتقلُ مِنها ٱلذِّهنُ بِتوسُّلِها إلى ٱلخواصِّ فِي ٱلإفادةِ بلا إخلالٍ وَلا تعقيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَضَعُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَانَ يُقَالُ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. أَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ أَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١١٠و١١١من علم الادب)

امَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً . (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا . وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ : ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ . فَأَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلْأَلفاظِ فتكُونُ بِثلاثةِ اوجهٍ : (احدُها) مُجانَبةُ ٱلْغَريبِ ٱلْوَحشِيِّ حتَّى لا يمجّهُ سمعٌ ولا ينفِر مِنهُ طبعٌ . (وَٱلثَّانِي) تَنكُّبُ ٱللَّفظِ ٱلْمُبتذلِ وَٱلْعدُولُ عنِ ٱلكَلامِ ٱلْمُستَرذَلِ حتَّى لا يَستَسقِطهُ خاصِّيٌّ ولا ينبُو عنهُ فهمُ عامِّيٍّ كما قالَ ٱلْجاحِظُ فِي كِتابِ ٱلْبيانِ : امَّا انا فلَمْ ارَ قومًا امْثَلَ طَرِيقةً فِي ٱلبلاغةِ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وذٰلِكَ انَّهُمْ قدِ ٱلتمسُوا مِنَ ٱلْأَلفاظِ ما لَمْ يكُنْ مُتوَعِّرًا وحشِيًا ولا ساقِطًا عامِّيًا . (وَٱلثَّالِثُ) انْ يكُونَ بَيْنَ ٱلْأَلْفاظِ ومَعانِيها مُناسَبةٌ ومُطابقةٌ . امَّا ٱلْمُطابقةُ فهِيَ انْ تكُونَ ٱلْأَلفاظُ كٱلْقوالِبِ لِمعانِيها فلا تزِيدُ عليها ولا تنقُصُ عنها . وقالَ بِشرُ بنُ ٱلْمُعتمِرِ فِي وصِيَّتِهِ فِي ٱلبلاغةِ : إذا لَمْ تجِدِ ٱللَّفظةَ واقِعةً موْقِعَها ولا صائِرةً إلى مُستقَرِّها ولا حالَّةً فِي مَركَزِها بلْ وجدتَها قلِقةً فِي مكانِها نافِرةً عنْ موْضِعِها فلا تُكرِهْها على ٱلْقرارِ فِي غيرِ موْضِعِها فإنَّكَ انْ لَمْ تتعاطَ قرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْموْزُونِ ولَمْ تتكلَّفِ ٱخْتِيارَ ٱلْمنثُورِ لَمْ يعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ احدٌ وإذا انتَ تكلَّفتَهُما ولَمْ تكُنْ حاذِقًا فهِيمًا عابَكَ مَنْ انتَ اقلُّ عيبًا مِنهُ وأزرى عليكَ مَنْ انتَ فوْقهُ . وامَّا ٱلْمُناسبةُ فهِيَ انْ يكُونَ ٱلْمعنَى يَلِيقُ بِبَعضِ ٱلْأَلفاظِ إمَّا لِعُرفٍ مُستعمَلٍ اوْ لِٱتِّفاقٍ مُستحسَنٍ حتَّى إذا ذُكِرَتْ تِلكَ ٱلْمعانِي بِغيرِ تِلكَ ٱلْأَلفاظِ كانتْ نافِرةً عنها وإنْ كانتْ افصحَ واوضحَ لِٱعتِيادِ ما سِواها . وقالَ بعضُ ٱلْبُلغاءِ : لا يكُونُ ٱلْبلِيغُ بلِيغًا حتَّى يكُونَ معنَى كلامِهِ اسبقَ إلى فهمِكَ مِنْ لفظِهِ إلى سمعِكَ . وامَّا مُعاطاةُ ٱلْإِعرابِ وتجنُّبُ ٱللَّحنِ فإنَّما هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ • وَٱلبَلَاغَةُ اَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَاشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ اَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخَّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ اَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي اَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكَرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ اَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى اَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ اِلَّا بِغَيْرِهِ . وَاِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَاِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ اِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتَجْلُوهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا • وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْاِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِاخْتِصَارِ وَرِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اوْضَحَ وَافْصَحَ وَكَانَتِ ٱلْإِشَارَةُ ابْيَنَ وَانْوَرَ كَانَتْ انْفَعَ وَانْجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ. ثُمَّ اعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ انَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلْأَلْفَاظِ لِانَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ إِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَاسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ اوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ اشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: اوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلْإِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نِصْبَةً. وَٱلنِّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ اخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ اجْنَاسِهَا وَاقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا مُبَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا. وَفِي نَحْوِ قَوْلِ ابِي عُثْمَانَ (إِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ ابُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِابِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ:

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ افْنَتْهُ مَا قَرَتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ إِذَا ٱنْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ اعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ ابُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَامِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدُ

إِذَا كَتَبْتَ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَوَاسٍ فِي أَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ٱبْنِ بُرْدٍ : بِمَا فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ وَسَبَقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلَّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْإِحَاطَةُ بِأَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ إِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّهُمْ بِهِ أَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دَلِيلٍ لِاَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اَنَّهُ قَالَ : اِذَا اَرَدتَّ اَنْ تُصَلِّيَ فَادْخُلْ بَيْتَكَ وَاَغْلِقْ بَابَكَ . فَالظَّاهِرُ مِنْ هٰذَا هُوَ الْبَيْتُ وَالْبَابُ . وَمَنْ تَاَوَّلَ ذَهَبَ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ وَتَمْنَعُ اَنْ يَخْطُرَ بِهِ سِوَى اَمْرِ الصَّلَاةِ . فَعَبَّرَ عَنِ الْقَلْبِ بِالْبَيْتِ وَعَنْ مَنْعِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِاِغْلَاقِ الْبَابِ . وَهٰذَا يَحْتَاجُ اِلَى دَلِيلٍ لِاَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . فَالْمَعْنَى الْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ وَالْمَعْنَى الْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ اِلَى التَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ الْخِلَافُ اِذْ بَابُ التَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ . وَالْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰذَا فَاِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهًا ضَعِيفًا مِنَ التَّأْوِيلِ فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْوُجُوهِ الْقَوِيَّةِ فَاِنَّ السَّيْفَ بِضَارِبِهِ

اِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ   كَقُلُوبِهِنَّ اِذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ
تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ   مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وَهٰذَا الْفَصْلُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ اَكْثَرُهُ اِلَى التَّأْوِيلِ لِاَنَّهُ اَدَقُّ وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ . وَاِمَّا اَنْ يَحْتَمِلَ الشَّيْءَ وَغَيْرَهُ . وَتِلْكَ الْغَيْرِيَّةُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ ضِدًّا اَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . (فَالْاَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيْهِ اَكْثَرُ الْاَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي الدِّقَّةِ وَاللَّطَافَةِ مَجْرَى الْقِسْمَيْنِ الْآخَرَيْنِ . (وَاَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) فَاِنَّهُ قَلِيلُ الْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ . لِاَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلمَعنَى وَضِدِّهِ اَغرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلمَعنَى وَغَيرِهِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنهُ قَولُهُ : إِذَا لَمْ تَستَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَا يَشتَمِلُ عَلَى مَعنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ إِذَا لَمْ تَفعَلْ فِعلاً تَستَحِي مِنهُ فَٱفعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنزِعُكَ عَنْ فِعلِ مَا يُستَحَى مِنهُ فَٱفعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهجِ مِنَ ٱلشِّعرِ قَولُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمدَحُ بِهَا كَافُورًا :

وَاَظلَمُ اَهلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيتُ يُستَخرَجُ مِنهُ مَعنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنعَمَ عَلَيهِ يَحسِدُ ٱلْمُنعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنعِمَ يَحسِدُ ٱلْمُنعَمَ عَلَيهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُهُ اَيضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمدَحُهُ :

فَإِنْ نِلتُ مَا اَمَّلْتُ مِنكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعجِزُ ٱلطَّيرَ وِردُهُ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْبَيتَ يَحتَمِلُ مَدحًا وَذَمًّا وَإِذَا اُخِذَ بِمُفرَدِهِ مِنْ غَيرِ نَظَرٍ إِلَى مَا قَبلَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَولَى مِنهُ بِٱلْمَدحِ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعدِ وَٱلشُّذُوذِ . وَصَدرُ ٱلْبَيتِ مُفتَتَحٌ (بِإِنْ) ٱلشَّرطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعنَاهَا ٱلتَّقلِيلُ اَيْ : لَستُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَإِنْ نِلتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلتُ إِلَى مَورِدٍ لَا يَصِلُ إِلَيهِ ٱلطَّيرُ لِبُعدِهِ . وَإِذَا نُظِرَ إِلَى مَا قَبلَ هٰذَا ٱلْبَيتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدحِ خَاصَّةً لِارْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعنَى ٱلَّذِي قَبلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسمَ فِي شِعرِهِ كَقَولِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ   وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَإِنَّمَا   كَلَامُ ٱلْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تَعْنِي بِٱلْاَسِنَّةِ وَٱلْقَنَا   وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَإِنَّ هٰذَا بِٱلذَّمِّ اَشْبَهُ مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِأَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ. وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ تَنَالُ ٱلْخَامِلَ وَٱلْجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا. وَاَكْثَرُ مَا كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْكَافُورِيَّاتِ ... وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُوَجَّهَ اَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَاَتِّيهِ. (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) فَإِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ. لِأَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ كَثِيرُ ٱلْوُقُوعِ. وَٱلْقِسْمَ ٱلثَّانِي قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ. وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ: وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ. فَإِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ اَحَدُهُمَا ٱلْقَتْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَٱلْآخَرُ هُوَ ٱلْقَتْلُ ٱلْمَجَازِيُّ وَهُوَ ٱلْإِكْبَابُ عَلَى ٱلْمَعَاصِي فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا اَكَبَّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ.... وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ اَفْلَاطُونَ اَنَّهُ قَالَ: تَرْكُ ٱلدَّوَاءِ دَوَاءٌ. فَذَهَبَ بَعْضُ ٱلْاَطِبَّاءِ إِلَى اَنَّهُ اَرَادَ: إِنْ لَطُفَ ٱلْمِزَاجُ وَٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ ٱلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ. وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى اَنَّهُ اَرَادَ بِٱلتَّرْكِ ٱلْوَضْعَ اَيْ: وَضْعُ ٱلدَّوَاءِ عَلَى ٱلدَّاءِ دَوَاءٌ. يُشِيرُ بِذٰلِكَ

إلى حذق الطبيب في أوقات علاجه . ومثله في الشعر قول الفرزدق :

إذا جعفرٌ مرّت على هضبة الحمى   فقد أخذ الأحياء منها قبورها

وهذا يدلّ على معنيين : (أحدهما) ذمّ الأحياء والآخر ذمّ الأموات . أمّا (ذمّ الأحياء) فهو أنهم خذلوا الأموات يريد أنهم تلاقوا قتالهم وقوماً آخرين نفر الأحياء عنهم وأسلموهم أو إنهم استنجدوهم فلم ينجدوهم . وأمّا (ذمّ الأموات) فهو أنّ لهم مخازي وفضائح توجب عاراً وشناراً فهم يعدّون بها الأحياء ويلصقونها بهم . وعلى هذا ورد قول أبي تمّامٍ :

بالشعر طولٌ إذا اصطكّت قصائده

في معشرٍ وبه عن معشرٍ قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين . (أحدهما) أنّ الشعر يتّسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك . يريد بذلك أنّ مآثره كثيرةٌ ومآثر غيره قليلةٌ . (والآخر) أنّ الشعر يكون ذا فخرٍ ونباهةٍ بمدحك وذا خمولٍ بمدح غيرك . فلفظة الطول : يفهم منها ضدّ القصر ويفهم منها الفخر من قولنا : طال فلانٌ على فلانٍ أي فخر عليه . وممّا ينتظم بهذا السلك قول أبي كبيرٍ الهذليّ :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينه   فلمّا انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل . (أحدهما) أنه أراد بسعي الدهر سرعة تقضّي الأوقات مدّة الوصال . فلمّا انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته في السكون والبطء . (والآخر) أنه أراد بسعي

ٱلدَّهْرِ بِٱللَّنَائِمِ وَٱلْوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ   لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ اِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ . وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَاٰتِيَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ اِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَلَمْحَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجِّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجِّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يَعَرَّضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَأَنْقِسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . أَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلْأِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشْتَبِهَيْنِ . . .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) اِذَا كَانَا حَقِيقَيَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جمع خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَيَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ اَرْجَحُ لِاَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا نَعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا   وَبَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا   وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا
فَعَلِمْنَا اَنْ لَيْسَ اِلَّا بِشَقِّ م   ٱلنَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَاِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَاِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِاَنَّهُ هُوَ اَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . اَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجْزِهِ . فَاِنَّ عَجْزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِاَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَاِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَاَنَّهُ قَالَ : اَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَامَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعْدَادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . إِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ . وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ . وَغَرَضُنَا هَا هُنَا يَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِٱشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِٱشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعُ حالَةَ ٱلأَوَّلِ عساه يَعرِفُ حالَةَ ٱلثَّانِي . يدُلكَ على ذٰلِكَ انَّكَ اِذَا عطفْتَ على ٱلأوَّلِ شيئًا لَيسَ مِنْهُ سببٌ وَلَا هوَ مِمَّا يُذكَرُ بِذِكرِهِ لَمْ يَستقِمْ . فلَوْ قُلتَ : (خرجتُ ٱليَوْمَ مِنْ دارِي واحسنَ ٱلَّذي يقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلتَ مَا يُضحِكُ مِنهُ. وَانْ لَمْ يكُنْ في قوَّةِ ٱلْمفرَدِ فهوَ على قِسمَيْنِ : (ٱلأَوَّلُ) انْ يكُونَ معنَى اِحدَى ٱلْجملَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتعلِقًا بمعنَى ٱلأُخرَى كَمَا اِذَا كانَتْ كَٱلتَّوكِيدِ لَهَا اوْ كَٱلصِّفَةِ فلَايجُوزُ اِدخَالُ ٱلعَاطِفِ علَيهِ لِأَنَّ ٱلتَّوكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتعلِّقانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغنِي عن لَفظٍ يدُلُّ على ٱلتَّعلُّقِ. فمِثَالُ ٱلتوكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ . ولَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِأَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيستْ شَيْئًا غيرَ قَوْلِهِمْ : آمنَّا مع انَّهمْ غيرُ مؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جاءَ فِيهِ ٱلاِثبَاتُ (بِانْ وَاِلَّا) على هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحيٌ يُوحَى. فَٱلاِثبَاتُ فِي قَوْلِهِ تأْكِيدٌ لنَفيِ مَا يُنفَى . (ٱلْقِسمُ ٱلثَّانِي) انْ يكُونَ بيْنَ ٱلْجُملَتَيْنِ تَعلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يكُنْ بينَهُمَا مُناسبَةٌ فيَجِبُ تَرْكُ ٱلعَاطِفِ ايضًا لِاَنَّ ٱلعطفَ لِلتَّشرِيكِ وَلَا تشرِيكَ . وَمِنْ هَا هُنَا عَابُوا علَى ابي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ انَّ ٱلنَّوَى مُرٌّ وَانَّ ابَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَامُنَاسبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحسِنْ جَوَازَ ٱلعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بيْنَهُمَا مُناسبَةٌ فَامَّا انْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخبِرَ بِهِمَا اوْ بِٱلَّذِي اُخبِرَ عنهُمَا او بِهِمَا كِلَيْهِمَا. وَهٰذَا ٱلأَخِيرُ

هُوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلعطفِ وَمَعْنَى ٱلْمُناسبَةِ أَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو. أَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلْعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ. فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ٱلثَّانِي رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ . وَإِذَا أَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِٱشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ وَأَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وَكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ ... وَأَنْ نَكُفَّ ٱلْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ أَيْ لَا تَطْمَعُوا أَنْ تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَجِبُ إِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فَقَوْلُهُ : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ أَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا تَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلعَوَاذِلُ انَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلٰـكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ اِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى انْ يَسْأَلَهُ : فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ . اَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ اِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ : اَقُولُ صَدَقُوا . انَا كَمَا قَالُوا وَلٰـكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي . وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰـكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَـهُ فِي انَّهُ مَسْئُولٌ . وَامْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ اِلَى ٱلعَاطِفِ بِخِـلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللهُ : فَاِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَاِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا اُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ اِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ انْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلاوَّلُ) وَلَهُ احْوَالٌ : (ٱلأُولَى) انْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ . (ٱلثَّانِيَةُ) انْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِـكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ اِلَى فِيَّ. وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ. (ٱلثَّالِثَةُ) انْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ . وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ . قَالَ امْرُؤُ ٱلقَيْسِ :

وَقَدْ اَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلاوَابِدِ هَيْـكَلِ

وَيَجُوزُ انْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ: مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ. اِذَا اجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كقولك : لقيتك راكباً والحسن قادم . فالجملة حال من التاء او من الكاف والعامل فيها (لقيت) او من ضمير (راكب) وراكب هو العامل فيها . (القسم الثاني) الجملة الفعلية . ولا بد ان تكون ماضياً او مضارعاً . اما الماضي فلا بد معه من الاتيان بالواو وقد او باحدهما كقولك : تكلمت وقد عجلت . وجاء زيد قد ضرب عمراً . وجئت واسرعت في المجيء . ولم يجز البصريون خلوه عنهما وقالوا في قول ابي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

ان (قد) مقدرة فيها فان الشيء اذا عرف موضعه جاز حذفه . واما المضارع فان كان موجباً فلا يؤتى معه بالواو تقول : جاءني زيد يضحك وجاء عمرو يسرع وجلس يحدثنا (بالرفع) اي محدثاً لنا بتجرده عما يغير معناه اشبه اسم الفاعل اذا وقع حالاً . وان كان منفياً جاز حذف الواو مراعاة لاصل الفعل الذي هو الايجاب وجاز اثباتها لان الفعل ليس هو الحال . فان معنى قولك : (جلس زيد ولم يتكلم) جلس زيد غير متكلم . فجرى مجرى الجملة الاسمية . فالحذف كقولك : جاء زيد ما يفوه ببنت شفة . وكقوله : احلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب . فقوله : (لا يمسنا) في موضع نصب على الحال من ضمير المرفوع في احلنا . والاثبات كقولك : جلس زيد ولم يتكلم . وقال : افلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . وشبهوا به الفعل

ٱلْمَاضِي فقَالُوا : جاءَ زَيْدٌ ما ضَرَبَ عَمْرًا . وَجاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فَلهَا فوَائدُ : (ٱلْأُولَى) انَّها تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَانَّ ٱلْكَلَامَيْنِ أُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَائِبًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (اَلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللّٰهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (اَلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ ‏ ‏ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسَانِ

(اَلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : اَلنَّاسُ اَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتُ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا ‏ ‏ وَاِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ إِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ اَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَاَمَّا إِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى اَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ إِلَّا) كَقَوْلِهِ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا اَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ اَنَّ هٰذَا ٱلْاَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ اَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ اَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰهِ   م   تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِيًا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ اَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) إِذَا دَخَلَ (مَا وَإِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِإِلَّا) مُتَاخِّرًا عَنْهُ . فَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلْاِخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلْاِخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَإِذَا قُلْتَ : لَمْ اَكْسُ إِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ اَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ   مَا ٱخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمُ فَارِسَا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيدٌ اِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ اِلَّا زَيْدٌ. وَامَّا (اِنَّمَا) فَالِاخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَاخِّرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَالِاخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (اِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ اَنَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْاَوَّلُ اَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

اَنَا الرَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَاِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ اَنَا اَوْ مِثْلِي

فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِاَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعُ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: اِنَّمَا اَنَا اُدَافِعُ عَنْ اَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ اِلَى الْمُدَافَعِ عَنْهُ. اِذَا اَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (اِنَّمَا) فَاِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالِاخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَاِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَاِذَا قُلْتَ: اِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالِاخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَاِنْ قُلْتَ: اِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالِاخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ اَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ اِمَّا مُتَاخِّرًا كَقَوْلِكَ: اِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَاِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاجْزِهِ ... اِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَاِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَاِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَاهُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (اِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ اَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَاِذَا اَدْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِي اَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ اَنَّ اَقْوَى مَا يَكُونُ اِنَّمَا اِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰـكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ. وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ. فَإِذَا أَسْقَطْتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ: كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰـكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ. كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ. قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ. مِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ: قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ. وَلَا يَقُولُ: قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ. لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قتلَ ٱلخارجيِّ هُوَ ٱلَّذي يَعنيهِمْ . وَإِنْ كانَ قَدْ وَقَعَ قتلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي ٱعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلفَاعِلِ فيقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِأَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه) . وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ :

(ٱلأَوَّلُ ٱلِٱسْتِفْهَامُ) فَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلفِعْلِ وَقُلْتَ : أَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَإِذَا قُلْتَ : أَجَاءَكَ رَجُلٌ فَإِنَّ ٱلمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : أَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلمَجِيءِ مِنْ إِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلِٱسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْإِنْكَارِ : وَهُوَ إِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَإِمَّا لِإِنْكَارِ أَنَّهُ ٱلفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ ٱلفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ ٱنْتَحَلَ شِعْرًا : أَأَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ ٱلفِعْلُ مُضَارِعًا فَإِنْ أَدْخَلْتَ حَرْفَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ إِمَّا لِإِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . أَوْ لِإِنْكَارِ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلفِعْلِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

أَوْ لِإِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي أَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : أَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَأَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . أَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ ٱلحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَ اَتْرُكُ اِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ   زِيَارَتَهُ اِنِّي اِذًا لَلَئِيمُ

اَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : اَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَاِنْ اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَهُوَ لِاِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ اِمَّا لِاسْتِحْقَارٍ كَقَوْلِكَ : اَ اَنْتَ تَمْنَعُنِي . اَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَسْاَلُ ٱلنَّاسَ . اَوْ لِلْمُبَالَغَةِ اِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَاِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : اَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : اَفَاَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ اَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ اِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : اَغَيْرَ ٱللّٰهِ اَتَّخِذُ وَلِيًّا وَ اَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَدْعُونَ . وَاَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى اَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ اَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّاْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) اِذَا اَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَقُلْتَ : مَا اَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . ٱقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا اَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ   وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَاِذَا قُلْتَ : مَا اَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ اَنْ يَكُونَ قَدْ اَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَاِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا اَمَرْتُكَ . ٱقْتَضَاهُ . وَاِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ اَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فعلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا. وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ: لَمْ افعلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فعلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا.(اَلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ)مَا تقدَّمَ فِي ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلِاسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَانَا فعلْتُ. فَٱلقَصْدُ انَّ ٱلفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : انَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِانْفِرَادَ بِذٰلِكَ . اوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ :هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ. لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ انَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دَرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ احْسَنَ لِبْسَةٍ ... شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا :(زَيْدٌ). فَقَدْ اشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ ابْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ. وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ: انَا اعْطِيكَ . انَا اكْفِيكَ . انَا اقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ انْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : انتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . انتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ احَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلأبصارَ لَا تعمى وَإِنَّ ٱلكَافِرِينَ لَا يُفلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلكَلَامُ فِي ٱلخَبَرِ ٱلمَنفِيِّ . فَاذَا قُلتَ . انتَ لَا تُحسِنُ هٰذَا . كَانَ ابلَغَ مِنْ ان تقُولَ : لَا تُحسِنُ هٰذَا . فَٱلأوَّلُ لِمَنْ هُوَ اشَدُّ إِعجَابًا بِنَفسِهِ وَاكْثَرُ دَعوَى بِأَنَّهُ يُحسِنُ . وَٱعلَمْ انَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقدِيمُ ٱلأَسمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثلٍ) فِي نَحوِ قَولِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ   مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ   وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَولِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلحَقَّ وَٱلحُرْمَةَ . وَمَا اشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلإِنسَانُ سِوَى ٱلَّذِي اُضِيفَ إِلَيهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلقِيَاسِ انْ يَفعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ اقُلْ مِثْلُكَ اَعْنِي بِهِ   سِوَاكَ يَافَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكمُ (غَيرٍ) إِذَا سُلِكَ فِيهِ هٰذَا ٱلمَسْلَكُ كَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

غَيرِي بِاكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ   إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا اوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

اَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وَغَيرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذَا ٱلمَعْنَى

(امَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلأَوَّلُ) انْ تَكُونَ ٱلحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ اشَدَّ كَقَولِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) انْ يَكُونَ ذٰلِكَ الْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلكَلَامِ اوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتُغَشِّي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ. فَإِنَّهُ اَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ. وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ. (اَلثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ اَعْرَفَ اَوْ اَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ. وَقَامَ زَيْدٌ. وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ. (اَلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلْاِسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَاِنَّ ٱلْاِسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ اِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ. (اَلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ. فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَعْرَفَ فَاِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ اَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ اَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ. (اَلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَاَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (اَلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلْاِسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ. (اَلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ. (اَلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ. (اَلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ اِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ. اَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَاِذَا ٱبْتَلَى اِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. اَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ. جَازَ. وَاِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا. (اَلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي اِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى. وَاَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ. (اَلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ اَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا. وَكَرِيمٌ اَبًا. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَاِنَّ

زَيدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيدًا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . إِذَا رَفَعْتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ أَضْمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْأَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفْعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَإِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُصُ ٱلْغَرَضَ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعْطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعْطَاءُ لَا بَيَانُ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ إِلَّا أَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفْظِ لِأَغْرَاضٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ ٱلْفِعْلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلْمَفعولِ كَقَوْلِ طُفَيلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ ازْلَقَتْ   بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِـئِينَ فَزَلَّتِ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَـا   تُلَاقِي ٱلَّـذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَّطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا   إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَلْجَأُونَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَـلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا أَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيّ :

شَجْوُ حُسَّـادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ   أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰـكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِـكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِـلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِـكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِـلَ وَصْفًا لَهُ

إِلَى حَيْثُ يُعلَمُ بِٱلضَّرُورَةِ اَنَّ ذٰلِكَ لَيسَ اِلَّا لَهُ سَواءٌ كَانَ فِي نَفسِهِ كَذٰلِكَ اَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى ٱلشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا ٱلْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : مَا مِن اسْمٍ يُحْذَفُ فِي ٱلْحَالَةِ يَنْبَغِي اَنْ يُحْذَفَ فِيهَا اِلَّا وَحَذْفُهُ اَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذفِ ٱلْمُبْتَدَاِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ ٱلتَّلَبُّبَ م وَٱلْغَارَاتِ اِذْ قَالَ ٱلْخَمِيسُ نَعَمْ

اَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَمِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَاِ بِٱلْقَطْعِ وَٱلِاسْتِئْنَافِ اَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ ٱلرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعضَ اَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْاَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ اِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ اَتَوْا فِي اَكْثَرِ ٱلْاَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَاٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ اَنِّي يَوْمَ ذَا لِكَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ اِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

هُمُ حَلُّوا مِنَ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ ٱلْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

أُسَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمُ مِنَ ٱلْكَلَبِ ٱلشِّفَاءُ

وَاَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ ٱلْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ اَيْ لَوْلَا اَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . اَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ اَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ ٱلْاَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ٱلْاِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلتَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : اَكْرَمَنِي وَاَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللهِ اَيْ

أكرمني عبدُ اللهِ وأكرمتُ عبدَ اللهِ. ومما يشبهُ ذلكَ مفعولُ المشيئةِ إذا جاءتْ بعدَ (لوْ). فإنْ كانَ مفعولُها عظيماً أو غريباً فالأولى ذِكرُهُ كقولِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ أنْ أبكِي دماً لبكيتُهُ   عليهِ ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسعُ

فإنَّ بكاءَ الإنسانِ دماً عجيبٌ. وإنْ لمْ يكنْ كذلكَ فالأولى حذفُهُ كقولِهِ: وَلَوْ شاءَ اللهُ لجمعَهُمْ على الهُدى. والتقديرُ: ولوْ شاءَ اللهُ أنْ يجمعَهُمْ على الهُدى لجمعَهُمْ. واعلمْ أنَّهُ قدْ تُتركُ الكنايةُ إلى التصريحِ لِما فيهِ منْ زيادةِ الفخامةِ كقولِ البحتريِّ:

قدْ طلبْنا فلمْ نجدْ لكَ في السؤ   ددِ والمجدِ والمكارمِ مِثْلا

المعنى قدْ طلبْنا لكَ مِثْلاً. ثمَّ حذفَ لأنَّ هذا المدحَ إنَّما يتمُّ بنفيِ المِثْلِ فلوْ قالَ: قدْ طلبْنا لكَ مِثْلاً في السؤددِ والمجدِ فلمْ نجدْ لكانَ قدْ أوقعَ نفيَ الوجودِ على ضميرِ (المِثْلِ) فلمْ يكنْ فيهِ منَ المبالغةِ ما إذا أوقعَهُ على صريحِ المِثْلِ. فإنَّ الكنايةَ لا تبلغُ مبلغَ الصريحِ. وعلى ذلكَ قولُ الشاعرِ:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ   نغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

إنَّ الكلمَ جمعُ كلمةٍ. والجوامعَ جمعُ جامعةٍ. والجامعةُ اسمُ فاعلةٍ منْ جمعتْ فهيَ جامعةٌ. كما يُقالُ في المذكرِ جمعَ فهوَ جامعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفَا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ
سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا — تقطع من اقرانها ما تقطعا
ليال تنسيني الليالي حسابها — بلهنية اقضي بها الحول اجمعا
سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه — واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه) . (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة المعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ مِنْهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوْجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفْظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحْسَنُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ غَيْرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلِانْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ وَٱلْمَعْنَوِيِّ بَسِيطًا مَفْهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلْفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعْنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنْسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكْرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنْشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظْهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيْدَانِ مَا أَثْقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجْمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلْإِنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فِقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ . وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً . وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ . وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ . وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

ينظمها في سلك . ومثاله قول الجاحظ : جنّبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعروف نسباً وبينك وبين الصدق سبباً . وكقول النابغة للنعمان : يفاخرك ابن ابي جفنة وان لقفاك خير من وجهه ولشمالك خير من يمينه ولأخمصك خير من رأسه ولخطأك خير من صوابه ولخدمك خير من قومه . وهذا النظم لا يستحق الفضل الّا بسلامة معناه وسلامة الفاظه اذ ليس فيه معنى دقيق لا يدركه الّا بثاقب الفكر . وربما ظنّ بالكلام انه من هذا الجنس ولا يكون منه . (الثاني) ان تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض وهناك تظهر قوة الطبع وجودة القريحة واستقامة الذهن . ثم ليس لهذا الباب قانون يحفظ فانما يجيء على وجوه شتى : (فمنها الايجاز) وهو التعبير عن الغرض باقل ما يمكن من الحروف وهو على ضربين : (احدهما) ايجاز قصر وهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى . (والثاني) ايجاز حذف وهو الاستغناء بالمذكور عمّا لم يذكر . (ومنها التأكيد) وهو تقوية المعنى وتقريره امّا باظهار البرهان كقول قابوس :

يا ذا الذي بصروف الدهر عيّرنا — هل عاند الدهر الّا من له خطر
اما ترى البحر يعلو فوقه جيف — وتستقرّ باقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم غير ذي عدد — وليس يكسف الّا الشمس والقمر

(او بالعزيمة) كقوله : فورب السماء والارض انه لحق .

(او بالتكرار) كقولهم : الله الله والاسد الاسد

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوَّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و ٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اَسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ ٱلْمَعْنَى وهَتَكَ لَكَ ٱلْحُجُبَ دُونَ ٱلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ ٱلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ وَمِنْ ايّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ ٱلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ ٱلْاَمْرِ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا ٱلْقَائِلُ وَٱلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفَهْمُ وَٱلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ٱلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ ٱلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ: مَا ٱلْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلشِّرْكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِٱلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: ٱلْبَيَانُ بَصَرٌ وَٱلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ ٱلْعِلْمَ بَصَرٌ وَٱلْجَهْلَ عَمًى وَٱلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلصِّدْقُ وَحَيَاةُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَفَافُ وَحَيَاةُ ٱلْحِلْمِ ٱلْعِلْمُ وَحَيَاةُ ٱلْعِلْمِ

اَلْبَيَانُ . وَقَالَ اَبْنُ اَلتَّوْأَمِ : اَلرُّوحُ عِمَادُ اَلْبَدَنِ وَاَلْعِلْمُ عِمَادُ اَلرُّوحِ وَاَلْبَيَانُ عِمَادُ اَلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ اِلَى اَنَّ اَلْكَلَامَ اِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ اَلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ اَلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ اَلْبَيَانُ وَاَلسِّحْرُ اَلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ اَلْحُكَمَاءِ) : اَلْبَيَانُ هُوَ اَنْ يُحْسِنَ اَلْعِبَارَةَ عَنِ اَلْمَعَانِي اَلَّتِي تَهْجِسُ فِي اَلضَّمِيرِ فَيُحْتَاجُ اِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا اَلْمُتَخَيَّلَةِ اَوِ اَلْمَعْقُولَةِ اِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ اَلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ اَلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ اِلَى اَلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى اَللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ اَبْنُ اَلْمُعْتَزِّ : اَلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ اَلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ اَلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : اَلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ اَللِّسَانِ وَرَوْضُ اَلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ لُغَةً اَلْكَشْفُ وَاَلتَّوْضِيحُ وَاَلظُّهُورُ وَهُوَ فِي اَلِاصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ اَلْمَنْطِقِ اَلْفَصِيحِ اَلْمُعْبِرِ عَمَّا فِي اَلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى اَلْاِثْبَاتِ بِاَلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : اَلْفَرْقُ بَيْنَ اَلْبَيَانِ وَاَلتِّبْيَانِ بِاَنَّ اَلْبَيَانَ هُوَ اِظْهَارُ اَلْمُرَادِ . وَاَلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ اَلْخَاطِرِ وَاِعْمَالِ اَلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : اَلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِندَ ٱلْبُلَغَاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعَلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَأَقْسَامِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّةَ وَٱلِٱلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا

البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلبيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبيَانِ بِأَجْمعهِ . فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا . فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَأَمَّا ٱلْمجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ . فَٱلْمجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا . وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلْإِنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ . وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ . أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْإِتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : قَالَ ٱلْأَسَدُ . قَالَ ٱلثَّعْلَبُ . فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ : إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلْآخَرُ وَضعِيٌّ. (امَّا ٱلنَّظَرِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلْالفَاظَ اِنَّمَا جعِلَتْ ادِلَّةً على اِفهَام ٱلْمعَاني وَلَوْ كانَ ما ذَهَبْتَ اِلَيهِ صَحيحًا لَكَانَ ٱلْبحْرُ يُطْلَقُ على هٰذَا ٱلْمَاءِ ٱلْعظِيمِ ٱلْملحِ وعلى ٱلرَّجُلِ ٱلْجوادِ بِٱلْاشْتِرَاكِ. وَكَذٰلِكَ ٱلشَّمْسُ ايضًا فَاِنها كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلْكَوْكَبِ ٱلْعظِيمِ ٱلْكَثِيرِ ٱلضَّوْءِ وعلى هٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ بِٱلْاشْتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَاِذَا وَرَدَ احَدُ هٰذَيْنِ ٱللَّفظَيْنِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفْهَمُ ٱلْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ احَدِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ ٱلْمُشْتَرِكَيْنِ ٱلْمُنْدَرِجَيْنِ تَحْتَهُ وَنَحْنُ نَرَى ٱلْأمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلْنَا: شَمْسٌ اوْ بَحْرٌ. وَاطْلَقْنَا ٱلْقَوْلَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ. وَاِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْكَوْكَبُ ٱلْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ ٱلْمَاءُ ٱلْمَعْلُومُ لَا غَيْرُ فَبَطَلَ اِذًا مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاوْضَحْنَاهُ. (فَاِنْ قُلْتَ): اِنَّ ٱلْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ فَاِنَّ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مَا اِذَا اُطْلِقَ لَمْ يَذْهَبِ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ اِلَّا اِلَى ٱلْمجَازِ دُونَ ٱلْحَقِيقَةِ. (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ): هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ اِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيْهِ. لِأَنَّهُ اِنْ كَانَ اِطْلَاقُ ٱللَّفْظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ اِلَّا ٱلْمَعْنَى ٱلْمجَازِيَّ. لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا اصْلَ وَضْعِ ٱلْكَلِمَةِ. وَامَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ اصْلَ ٱلْوَضْعِ فَاِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ اِلَّا ٱلْحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ... (وَامَّا ٱلْوَجْهُ ٱلْوَضْعِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ اِلَى اصْلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضْعُ ٱلْاَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا انَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا انَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا. وَاِنَّمَا اهْلُ

ٱلخطابةِ وَٱلشعرِ توسّعوا فِي ٱلأساليبِ ٱلمعنويّةِ فنقلوا ٱلحقيقةَ إِلى ٱلمجازِ ولَمْ يكنْ ذلكَ مِنْ واضعِ ٱللغةِ فِي اصلِ ٱلوضعِ ولهذا ٱختصَّ كلٌّ مِنهم بِشيءٍ ٱخترعهُ فِي ٱلتوسُّعاتِ ٱلمجازيّةِ . هذا ٱمرؤُ ٱلقيسِ قدِ ٱخترعَ شيئاً لمْ يكنْ قبلهُ . فمِنْ ذلكَ انّهُ اوّلُ مَنْ عبّرَ عنِ ٱلفرسِ بقولهِ : (قيدُ ٱلاوابدِ) . ولمْ يُسمعْ ذلكَ لِاحدٍ مِنْ قبلهِ . . . وواضعُ ٱللغةِ ما ذكرَ شيئاً مِنْ ذلكَ فعلمنا حينئذٍ انَّ مِنَ ٱللغةِ حقيقةً بوضعهِ ومجازاً بتوسُّعاتِ اهلِ ٱلخطابةِ وَٱلشعرِ . وفي زمانِنا هذا قدْ يخترعونَ اشياءَ مِنَ ٱلمجازِ على حكمِ ٱلاستعارةِ لمْ تكنْ مِنْ قبلُ . ولوْ كانَ هذا موقوفاً مِنْ جهةِ واضعِ ٱللغةِ لَمَا ٱخترعهُ احدٌ مِنْ بعدهِ ولَا زيدَ فيهِ ولَا نقصَ مِنهُ . وامّا ٱلفرقُ بينهُ وبينَ ٱلحقيقةِ فهوَ انَّ ٱلحقيقةَ جاريةٌ على ٱلعمومِ فِي نظائرَ . ألا ترى إِذا قلنا : فلانٌ عالمٌ صدقَ على كلِّ ذي عِلمٍ . بخلافِ (وَٱسألِ ٱلقريةَ) . لِانّهُ لا يصحُّ إِلّا فِي بعضِ ٱلجماداتِ دونَ بعضٍ إِذِ ٱلمرادُ اهلُ ٱلقريةِ لِانّهم ممّنْ يصحُّ ٱلسؤالُ لهمْ . ولا يجوزُ انْ يُقالَ : وَٱسألِ ٱلحجرَ وَٱلترابَ . وقدْ يحسنُ انْ يُقالَ : وَٱسألِ ٱلربعَ وَٱلطللَ . (وَٱعلمْ) انَّ كلَّ مجازٍ فلهُ حقيقةٌ لِانّهُ لمْ يصحَّ انْ يُطلقَ عليهِ ٱسمُ ٱلمجازِ إِلّا عنْ حقيقةٍ موضوعةٍ لهُ إِذِ ٱلمجازُ هوَ ٱسمٌ لِلموضوعِ ٱلّذي يُنتقلُ فيهِ مِنْ مكانٍ إِلى مكانٍ فجُعلَ ذلكَ لِنقلِ ٱلالفاظِ مِنَ ٱلحقيقةِ إِلى غيرِها . وإِذا كانَ كلُّ مجازٍ لا بُدَّ لهُ مِنْ حقيقةٍ نُقِلَ عنها إِلى حالةِ ٱلمجازيّةِ فكذلكَ ليسَ مِنْ ضرورةِ كلِّ حقيقةٍ انْ يكونَ لها مجازٌ . فإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلْاِسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تُرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجَّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ .

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اَثبَتَ اَلْيَدَ لِلشَّمَالِ مُبَالَغَةً فِي تَشْبِيهِهَا بِاَلْقَادِرِ فِي اَلتَّصَرُّفِ فِيهِ. وَحَدَّ اَلرُّمَّانِيُّ اَلِاسْتِعَارَةَ فَقَالَ: هِيَ تَعْلِيقُ اَلْعِبَارَةِ عَلَى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي اَصْلِ اَللُّغَةِ عَلَى سَبِيلِ اَلنَّقْلِ لِلْإِبَانَةِ. وَقَالَ اَبْنُ اَلْمُعْتَزِّ: هِيَ اَسْتِعَارَةُ اَلْكَلِمَةِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ عُرِفَ بِهَا اِلَى شَيْءٍ لَمْ يُعْرَفْ بِهَا. وَذَكَرَ اَلْخَفَاجِيُّ كَلَامَ اَلرُّمَّانِيِّ وَقَالَ: وَتَفْسِيرُ هٰذِهِ اَلْجُمْلَةِ اَنَّ قَوْلَهُ مَثَلًا: (وَاَشْتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَيْبًا). اَسْتِعَارَةٌ لِاَنَّ اَلِاشْتِعَالَ لِلنَّارِ وَلَمْ تُوضَعْ فِي اَصْلِ اَللُّغَةِ لِلشَّيْبِ فَلَمَّا نُقِلَ اِلَيْهِ بَانَ اَلْمَعْنَى لِمَا اَكْتَسَبَهُ مِنَ اَلتَّشْبِيهِ. لِاَنَّ اَلشَّيْبَ لَمَّا كَانَ نَافِذًا فِي اَلرَّأْسِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يُحِيلَهُ اِلَى غَيْرِ لَوْنِهِ اَلْاَوَّلِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ اَلنَّارِ اَلَّتِي تَسْرِي فِي اَلْخَشَبِ حَتَّى تُحِيلَهُ اِلَى غَيْرِ حَالَتِهِ اَلْمُتَقَدِّمَةِ. فَهٰذَا مِنْ نَقْلِ اَلْعِبَارَةِ عَنِ اَلْحَقِيقَةِ فِي اَلْوَضْعِ لِلْبَيَانِ وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ اَوْضَحَ مِنَ اَلْحَقِيقَةِ لِاَجْلِ اَلتَّشْبِيهِ اَلْعَارِضِ فِيهَا. لِاَنَّ اَلْحَقِيقَةَ لَوْ قَامَتْ مَقَامَهَا لَكَانَتْ اَوْلَى بِهَا لِاَنَّهَا اَلْاَصْلُ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى اَلْمُتَأَمِّلِ اَنَّ قَوْلَهُ: (وَاَشْتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَيْبًا). اَبْلَغُ مِنْ: كَثُرَ شَيْبُ اَلرَّأْسِ. وَهُوَ حَقِيقَةُ هٰذَا اَلْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ). اَحْسَنُ وَاَبْلَغُ فِي مَا قُصِدَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ شِدَّةِ اَلْاَمْرِ. وَاِنْ كَانَ اَلْمَعْنَيَانِ وَاحِدًا. اَلَا تَرَى اَنَّكَ تَقُولُ لِمَنْ يَحْتَاجُ اِلَى اَلْجِدِّ فِي اَمْرِهِ: شَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ. فَيَكُونُ هٰذَا اَلْقَوْلُ مِنْكَ اَرْكَزَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْلِكَ: جِدَّ فِي اَمْرِكَ. وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ اَلصِّمَّةِ:

كَمِيشُ اَلْاِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... صَبُورٌ عَلَى اَلضَّرَّاءِ طَلَّاعُ اَنْجُدِ

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُمُومِهِ أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ أَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَأَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ أَنَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْأَسَدُ . فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ أَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَأَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْأَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَيْ كَٱلْأَسَدِ . فَأَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ وَإِذَا أُظهِرَتْ ازَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ ... فَٱلفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ انَّ ٱلتَّشبِيهَ ٱلْمُضمَرَ ٱلأَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَايضًا فَكُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ انَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشبِيهِ . فلَوْ قُلْتَ: رَأَيتُ نَخْلَةً اوْ خَامَةً . وَانْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ ٱسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ أمرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ انَّهُ لَا بُدَّ ايضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلأَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلأَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبسُ وَعَدَمُ ٱلإِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

(عن صناعة الترسل ايضاً)

الأعلام لا يدخلها الاستعارة لما تقدم في المجاز . واما الفعل فالاستعارة تقع اولًا في المصدر ثم تقع بواسطة ذلك في الفعل . فاذا قلت : نطقت الحال بكذا . فهذا انما يصح لانك وجدت الحال مشابهة للنطق في الدلالة على الشيء فلا جرم استعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته الى الفعل . والاسماء المشتقة في ذلك كالفعل . فظهر ان الاستعارة انما تقع وقوعاً اوليًّا في اسماء الاجناس . ثم الفعل اذا كان مستعارًا فاستعارته اما من جهة فاعله كقوله : نطقت الحال بكذا او لعبت به الهموم . وكقول جرير :

يخشى الرَّوامس ربعها فتجدُّه بعد البلى وتميته الامطار

او من جهة مفعوله كقول ابن المعتز :

جمع الحقُّ لنا في امامٍ قتل الجور واحيا السماحا

او من جهة الفاعل والمفعول كقوله : يكاد البرق يخطف ابصارهم . ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدها . اما ترشيحها فهو ان تنظر فيها الى المستعار وتراعي جانبه وتوليه ما تستدعيه وتضمّ اليه ما تقتضيه كقول النابغة :

وصدرٍ اراح الليل عازب همّه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

اَلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ ٱلْازَاحَةُ مَنْظُورٌ اِلَيْهِ فِي لَفْظِ ٱلْعَازِبِ . وَامَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا اِلَيْهِ كَقَوْلِهِ: فَاَذَاقَهَا ٱللّٰهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . فَاِنَّ ٱلْاِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ اَثَرِ ٱلضَّرَرِ وَٱلْاَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ ٱلْمُرِّ. اَلشَّبَعُ وَٱللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَاَنَّهُ قَالَ : فَاَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ اَلَمِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى اَسَدٍ شَاكِي ٱلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لَبَدٌ اَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ اِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى اَسَدٍ دَامِي اَوْ دَامِي ٱلْبَرَاثِنِ مَثَلًا.وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ اِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

اِسْتَعَارَ ٱلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِاَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ ٱلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِٱلْغَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ وَصْفُ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّوَالِ لَا وَصْفُ ٱلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْاِسْتِعَارَةُ بِٱلْكِنَايَةِ وَهُوَ اَنْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ ٱلْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ اَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ ٱلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ اَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَاِذَا ٱلْمَنِيَّةُ اَنْشَبَتْ اَظْفَارَهَا اَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى اَنَّ ٱلشُّجَاعَ اَسَدٌ وَٱلْعَالِمَ بَحْرٌ وَٱلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ يُشْبِهُ ٱلْاِسْتِعَارَةَ ٱلْمُجَرَّدَةَ اِلَّا اَنَّهُ اَغْرَبُ وَاَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعصِ اَطْرَافَ ٱلرِّمَاحِ فَإِنَّهُ   يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِاَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ اَيْ اَشْرَعُوا ٱلْاَسِنَّةَ وَاَخَّرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ اَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلِاسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَاَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ اَصْلًا . مِثَالُهُ اسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ   بِاَنَّ لَـهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ اَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا   تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ اَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَاَحَدُهُمَا اَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اَسمَ اَلزَّائدِ مُبالَغةً فِي تَحقيقِ ذٰلكَ اَلوَصفِ لهُ كَقولِكَ: رَاَيتُ اَسدًا. وَاَنتَ تَعنِي رَجُلًا شُجاعًا. (وَاَلثَّانِي) تُعتَمَدُ لَوازِمُهُ عِنـدَمَا يَكُونُ جِهَةُ اَلِاشْتِراكِ وَصْفًا وَاِنَّمَا ثبتَ كَمالُهُ فِي اَلْمُسْتَعارِ فِي وَاسِطَـةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ اَلشَّيْءَ لِلمستَعارِ لَهُ مُبالَغَةً فِي اِثْبَاتِ اَلْمُشْتَرَكِ. كَقَولِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

اِذَا هَزَّهُ فِي عَظمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ   نَوَاجِذُ اَفْوَاهِ اَلْمَنَايَا اَلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ اَلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ اَلسَّيْفِ بِالسُّرُورِ وَكَمالُ اَلْفَرَحِ وَاَلسُّرُورِ اِنَّمَا يَظْهَرُ بِالضَّحِكِ اَلَّذِي يَتَهَلَّـلُ بِهِ اَلنَّوَاجِذُ اَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ اَلْمَقْصُودِ وَاِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ اِلَيْهِ اَسْمُ اَلنَّوَاجِذِ. وَهٰـكَـذَا اَلْـكَلَامُ فِي قَوْلِ اَلْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ اَلرَّدَى سَيْفٌ اِذَا سُلَّ اَوْمَضَتْ   اِلَيْهِ مَنَايَا اَلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا اَلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى اَلْعِنَانِ وَمُلْقَى اَلزِّمَامِ. وَاَلْفَرْقُ بَيْنَ اَلْقِسْمَيْنِ اَنَّكَ اِنْ رَجَعْتَ فِي اَلْاَوَّلِ اِلَى اَلتَّشْبِيهِ اَلَّذِي هُوَ اَلْمَقْصَدُ مِنْ كُلِّ اَسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَاَيْتُ رَجُلًا كَالْاَسَدِ اَوْ مِثْلَهُ اَوْ شِبْهَهُ. وَاِنْ رُمْتَهُ فِي اَلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ اَلْمُؤَاتَاةَ اِذْ لَا وَجْهَ اَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ اَلْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَاِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ اَلتَّشْبِيهُ بَعْدَ اَنْ تَخْرُقَ اِلَيْهِ سِتْرًا اَوْ تَعْمَلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي اِغْفَالِ هٰذَا اَلْاَصْلِ وُقُوعٌ فِي اَلتَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ اَنَّ كُلَّ اَسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ اَلْاِشَارَةُ اِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ اَلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَـةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ارْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْخَلَاصُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلْإِنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ ٱلْمَوْجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ ٱلْمَعْدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ: وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْاِسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلْاِنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ وَسَطاً وَعَجُزاً ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّياً مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْكَلْكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدِّمَةٍ حِلْيَتِهَا . (وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلاً لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطُلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ

لِعدم الشَّبهِ الَّذي لِأَجلهِ جعل لِلشّركِ عيوناً . ومن تأمّل هذين البيتين لا يفهم معنى الاستعارة لِأَنَّ النوّار والشرك لا عيون لهما على الحقيقة . وقد قبحت استعارة العيون لِاحدِهما وحسنت للآخر . والعلّة فيهِ انّ النوّار يشبهُ العيون . والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها .

ومن احسن الاستعارات كقول الشريف الرضيّ :

رنا النسيمُ بواديكم ولا برحت حوامل المزن في اجداثكم تضعُ
ولا يزال جنين النبت ترضعهُ على قبوركم العرّاصة الهمعُ

لِأَنَّ المزن تحمل الماء واذا حملت تضعهُ فاستعارة الحمل لها والوضع المعروفين من اقرب شيء واشبهه . وكذلك جنين النبت لِأَنَّ الجنين المستور مأخوذ من الجنة . واذا كان النبت مستوراً والغيث يسقيه كان ذلك بمنزلة الرضاع

وامثال المحاسن في ذلك والمساوئ كثيرة وقد اخذ القول في هذا الباب حقّهُ . مع انّ اقوال العلماء بهذا الفنّ فيهِ اكثر من ذلك

البحث الثامن

في ما جاءَ من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَامَّا ما جاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهِيَ نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . إِنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . اِرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَّلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائق الجو . شاب رأس الليل . لبست الشمس جلبابها . قام خطيب الرعد . خفق قلب البرق . انحلّ عقد السماء . وهي عقد الانداء . انقطع شريان الغمام . تنفس الربيع . تعطّر النسيم . تبرّجت الارض . قوي سلطان الحرّ . آن ان يجيش مرجله . ويثور قسطله . انحصر قناع الصيف . جاشت جيوش الخريف . حلّت الشمس الميزان . وعدل الزمان . دبّت عقارب البرد . اقدم الشتاء كلكله . ثابت نفارق الجبال . يوم عبوس قمطرير . كشّر عن ناب الزمهرير . وكقولهم في محاسن الكلام : الادب غذاء الروح . الشباب باكورة الحياة . النار فاكهة الشتاء . العيال سوس المال . النبيذ كيمياء الفرح . الوحدة قبر الحيّ . الصبر مفتاح الفرج . الدين داء الكرام . النمام جسر الشر . الارجاف زند الفتنة . الشكر نسيم النعيم . الربيع شباب الزمان . الولد ريحانة الروح . الشمس قطيفة المساكين . الطيب لسان المروءة . ويسمّون النبات نوا . قال : وجفّ انواء السحاب . اي جفّ البقل . ويقولون للمطر سماء . قال الشاعر :

اذا سقط السماء بارض قوم ❊ رعيناها وان كانوا غضابا

ويقولون : ضحكت الارض اذا انبتت لانها تبدي عن حسن النبات كما يفترّ الضاحك عن الثغر . ويقال : ضحكت الظلمة . والنور يضاحك الشمس . قال الاعشى :

يضاحك الشمس منه كوكب مشرق ❊ مؤزّر لعميم النبت مكتهل

وَيقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحابُ بِٱلبَرْقِ وحَنَّ بِٱلرَّعدِ وبَكَى بِٱلقَطْرِ. وَيقُولُونَ: لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلقِرْبَةِ اي شِدَّةً ومَشَقَّةً. (وَاصْلُ هٰذَا انَّ حامِلَ ٱلقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعرَقَ) . وَيقُولُونَ ايضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلجَبِينِ . وَٱلعَرَبُ تَقُولُ : بِأَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِانَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلعَجَّاجِ :

كَٱلكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ ايضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ فِي ٱلقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : اشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلقَوْمِ . وَقَالَ : وَامَا وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : ارْغَبْ رَاغِبَهُمْ وَاحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلمَسْأَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلحِلْمُ وَٱلاَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ امْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ ابُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبَهُ ٱلْإِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزْلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفَرَ عُمْرُهُ وَضَحَّى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقَلَّ عَقْرَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ: ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ أَعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْيَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ: رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: ٱلشُّكْرُ كُفُوءُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَذْرَاعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

ارشيةَ ٱلْمَوْتِ وَٱستقَوا بِهَا ارواحَ ٱلعدُوِّ . وقَالَ آخرُ : فُلَانٌ امْلَسُ لَيس فِيهِ مُستَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وقَالَ احمَدُ بْنُ يُوسُفَ وقد شَتَمَهُ رَجلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَأَيتُهُ يَستَمْلِي مَا يلقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيكَ . وقِيلَ لِأَعرَابِيٍّ : ايُّ طَعَامٍ اطْيَبُ . قَالَ : ٱلْجُوعُ ابْصَرُ . وَمَدَحَ اعرَابِيٌّ رجلًا قَالَ : كَانَ يَفتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ ابوَابًا مُنسَدَّةً وَيَغسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . إِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَإِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى امْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اعدَائِهِ . وَمَدَحَ اعرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ إِلَيهِمْ . وقَالَ اعرَابِيٌّ يَمدَحُ رَجُلًا : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعلَمُ انَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اعرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ احْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . إِنْ اسَأْتَ إِلَيهِ احسَنَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَإِذَا اجرَمْتَ غَفَرَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . إِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْأَذَى فَهُوَ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنيَا بِأَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَأَى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَستَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَستَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وقَالَ اعرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَإِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَأَلَ اعرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ وَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اعرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ اقْفَاءَهُم بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللُّؤْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اعرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اقَلُّ ذُنُوبًا إِلَى اعدَائِهِمْ

وَاكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اعرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يَكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا. لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ اعرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وُلِّيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاَرْسَلَ ٱلْعُيُونَ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا اصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُقُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ. اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَشُ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقالَ آخَرُ : ٱلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْاَطِبَّاءِ يَقُولُ : ٱلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ. وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا اَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَامَّا ٱلْاسْتِعَارَةُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَاَكْثَرُ مِنْ اَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى اَيضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلِٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ. وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ اَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ اَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ . (اَلْاَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا   وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ اَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ   وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ. وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ. مَعَ اَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ. وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ. فَاَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ. فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ. لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مليحٌ مِنْ عَيبٍ. وَلَاخلَا مِنْ مَرفوعٍ رَيبٌ. فَمعَ هذهِ ٱلمحَاسِنِ ٱلظَّريفةِ مَا سلِمَ ٱلبيتَانِ مِنْ عَيبِ ٱلقَافِيةِ. فقَدْ غيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كسْرةَ ٱلدَّخيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وجَاءَ فِي ذلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اديبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَولُ ٱلسَّلَامِي:

وَٱلنَّقعُ ثَوبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ وَٱلأَرْضُ فَرْشٌ بِٱلجِيادِ مُخمَّلُ
وَسُطُورُ خَيلِكَ اِنَّمَا ٱلِفَاتُهَا سُمرٌ تُنَقِّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوبِ وَٱلتَّطريزِ وَٱلخملِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلأَلِفَاتِ وَٱلنّقطِ وَٱلشَّكلِ

(تَنبيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبهُ كَانَ ذلِكَ عِندَهُمْ عَيبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

وَقدْ حَلَفتُ يَمِينًا مَبْرُورَةً لَا تُكذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمٍ وَٱلحَوْ ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيهِ ذِكرَ ٱلحَوضِ مَعَ زَمْزَمٍ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبِ. وَانَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ ذِكرُهُ مَعهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكرُ ٱلحَوضِ مَعَ ٱلمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَومِ ٱلقِيَامَةِ

(تَنبِيهٌ ثَانٍ) لوْ جَاءَ ٱلكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَافرَدَ احَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلآخرَ اوْجَمَعَهُ وَمَا اَشبَهَ ذلِكَ كَانَ عَيبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَاٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا اَمَا وَٱللهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ اِذَا ٱستَكمَلتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمعَ (ٱلأَجلَ) وَافرَدَ (ٱلرِّزقَ) مَعَ انَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (اَلثَّانِي) اَنْ يُذكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلٌّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبهُ فِي جُمَلٍ مُستَوِيَةٍ

ٱلمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ   عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَٱلْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا   وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(اَلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اِنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ   تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى   فَعَلْتَ تُسْعِدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ   زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(اَلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلْاَشياء . (ٱلرَّابعُ) اَنْ تذكرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تذكُرَ معهُ لفظًا مُشتركًا بَيْنَ اَمْرَيْنِ: اَحدُهُما يُلَائِمُ ٱلْاَوَّلَ وَٱلْآخَرُ لا يُلَائِمُهُ فَيَتوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ اَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلَائِمِ ولَيس كَذٰلِكَ . وَيُسمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ اِيهامَ ٱلنَّظِيرِ . كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلْكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلَاقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنْقُولِ اِلَيْهِ بِٱلْمَنْقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ . وَاِمَّا اَنْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلًا كَلَفْظِ ٱلْيَدِ اِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ اَيَادِيهِ عِنْدِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ . وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى ٱلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا . وَاَيْضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِاَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلْاَفْعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلقطْع وَٱلاَخذ وغَيرِ ذٰلكَ . وَانوَاعُ ٱلعلاقةِ ٱلمُعتَبرَةِ كَثيرَةٌ مِنهـا عَائدَةٌ اِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تدلُّ عَلَى زِيادَةٍ اَوْ نُقصَانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَاِطْلَاقُ ٱلخَاصّ لِلعَامّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلعَرَبِ فَاِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيـدُونَ كُلَّهُ فَيقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

اَوْ يَرْبِطُ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلقُرْآنِ : قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ اَبصَارِهِمْ . وَٱلمُرَادُ يَغُضُّوا اَبصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلخَطَأُ صِفَةُ ٱلكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ اِطْلَاقُهُمْ لَفظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ اَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلعَرَبِ اَنْ تُقِيمَ ٱلوَاحِدَ مَقَامَ ٱلجَمْعِ فَيقُولُونَ : قَرِرْنَا بِهِ عَيْنًا . اَيْ اَعيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنهُمْ . وَٱلتَّفرِيقُ لَا يَكُونُ اِلَّا بَيْنَ ٱثنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلبَابِ سُنَّةُ ٱلعَرَبِ اَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلعَظِيمِ وَٱلمَلِكِ ٱلكَبِيرِ : ٱنظُرُوا فِي اَمْرِي . وَلِاَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَاِنَّا اَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلاِبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلجَوَابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلعَامّ لِلخَاصّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِاَسْرِهِ وَاِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلكُلِّ عَلَى ٱلجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ · يُرِيدُ ٱلأَنْمُلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلأَصَابِعِ · وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلأَصَابِعِ فِي ٱلأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ · (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ . وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ · وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ‍‍ ‍ وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَاعْبُدَا

وَيُقَالُ اِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللهَ فَاعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ اِلَى (ٱلِاسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا اقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ ٱلِاسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ ٱلْمَطَرَ . لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ . اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عليهِ نحوُ : آتوا اليتامى اموالهمْ . اي الذين كانوا يتامى لانهم لا يؤتَون اموالهم حتَّى يبلغوا ولا يُتم بعد البلوغ . (ومنهُ) تسمية الشيء باسم ما يؤُول اليه نحوُ : اني اراني اعصر خمرًا اي عنبًا . يُعصر فيؤُول الى الخمرِ . وكقولهِ : ولا يلدوا الا كفارًا . اي صائرًا الى الكفرِ . (ومنهُ) تسمية الشيء باسم محلّهِ نحوُ : فليدعُ ناديَهُ اي اهلَ ناديهِ . اي مجلسهِ . وكقولهِ : اسألِ القرية التي كنا فيها . اي اهلها . (ومنهُ عكسهُ) اي اطلاق اسم الحالّ على المحلّ . نحوُ : حلّوا في رحمة الله اي في الجنة لانها محلّ الرحمةِ . (ومنهُ) تسميةُ الشيء باسم آلتهِ نحوُ : واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين . اي اجعل لي ثناءً حسنًا واللسانُ آلة الصدقِ والثناء . (ومنهُ) تسمية الشيء باسم ضدّهِ نحوُ : فبشّرهُم بعذاب اليمٍ . اي انذرهُم وهدّدهُم . وتقول العربُ للرجلِ تستجهلهُ : يا عاقلُ . والمرأةِ تستقبحها : يا قمرُ . (وكذلك) يقلبون المعنى نحوُ : عرضتُ الناقةَ على الحوضِ . يريدون الحوضَ على الناقةِ . (ومنهُ) وصفُ الشيء بما يقعُ فيهِ او يكونُ منهُ نحوُ : يومٌ عاصفٌ . اي عاصفُ الريحِ . وليلٌ نائمٌ وساهرٌ وصائمٌ اي يُنام فيهِ ويُسهر ويُصام . (ومنهُ) اضافةُ الفعل الى ما لا يصلحُ لهُ تشبيهًا . كقولهِ : جدارٌ يريدُ ان ينقضَّ . ولا ارادةَ للجدارِ . ولكنَّهُ توسَّع العربُ في المجازِ فعبَّروا عن الجمادِ بفعلِ الانسانِ كما قال الراجزُ :

امتلأَ الحوضُ وقال قطني

اي كفاني وليس للحوض قولٌ. ومثله قول الراعي الشاعر النصراني :

في مهمهٍ فلقت به هاماتها فلق الفؤوس اذا اردن تصولا

والعرب تسمي التهيؤ للفعل والاحتياج اليه ارادة. وكذلك يأتون بلفظ الماضي وهو مستقبلٌ وبلفظ المستقبل وهو ماضٍ كقوله : لم تقتلون انبياء الله اي لم قتلتم . وكما قال الشاعر :

فادركت من قد كان قبلي ولم ادع لمن كان بعدي في القصائد مصنفا

اي لمن يكون بعدي . ومثله قوله : وكان الله غفورا . اي كان ويكون وهو كائنٌ الآن جل ثناؤه . وكذلك يأتون بالمفعول بلفظ الفاعل فيقولون : سرٌّ كاتمٌ اي مكتومٌ . ومكانٌ عامرٌ اي معمورٌ. وماءٌ دافقٌ اي مدفوقٌ . وعيشةٌ راضيةٌ اي مرضيةٌ . وحرمٌ آمنٌ اي مأمونٌ . وقال جريرٌ :

ان البلية من تملُّ كلامهُ فانقع فؤادك من حديث الوامق

اي من حديث الموموق . ويعكسون هذا العمل ويستعملون الفاعل بلفظ المفعول كقوله : كان وعده مأتيًا اي آتيا . وكقوله : حجابٌ مستورٌ اي ساترٌ . ويقيمون الاسم والمصدر مقام الفاعل والمفعول . فتقول العرب : رجلٌ عدلٌ اي عادلٌ . ورضًى اي مرضيٌّ . وبنو فلانٍ لنا سلمٌ اي مسالمون . وحربٌ اي محاربون . (وكذلك) يحملون اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر فيتركون حكم ظاهر اللفظ ويحملونه على معناه كما يقولون : ثلاثة انفسٍ. والنفس مؤنثةٌ وانما حملوه على معنى الانسان او معنى الشخص

قالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا الْحُكْمُ فِي الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا الْمَجَازُ بِالْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى السَّاتِرِ وَعَلَى الْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ الْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ الْمَجَازُ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ الْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ الْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا الْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِالنَّظَرِ وَالْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . فَالْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَالْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِالْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ الْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكُنْيَةِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا اسْمُهُ عَبْدُ اللهِ وَلَهُ وَلَدٌ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ اللهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي الْحُكْمُ فِي الْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ الْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ . إِلَّا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْوَصْفِ الْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِالْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ النِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ الْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ الْقَامَةِ كَثِيرُ الْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ الْمُرَادَ بِلَفْظِهِ الْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي الْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ النِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ الْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ الْقِدْرِ .

وَكَقَوْلِ الْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ وَٱلْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ احَدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلْآخَرَ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلْآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلِاسْتِعَارَةِ انَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ إِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ انْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ انْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي ابْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي امَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ ابِي مُسْلِمٍ :

ارَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ‏ وَيُوشِكُ انْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اوْرَدُوا لَهُمَا امْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَادْخَلُوا احَدَهُمَا فِي ٱلْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ امْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ امْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَامَيِّزُ احَدَهُمَا

عَنِ ٱلْآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ إِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا أَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَأَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : إِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَأَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَإِنَّ هٰذَا وَأَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . إِنَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ أَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْأَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : أَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْإِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْأَدَبِ . وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ   وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعَرَبَ يَلتَجِئُونَ اِلَى ٱلكِنَايَةِ اِذَا مَا ارَادُوا ٱلتَّعرِيضَ عَمَّا يُستَقْبَحُ ذِكْرُهُ فَيَكْنُونَ عَنِ ٱلاَعوَرِ بِٱلمُمَتَّعِ. وَعَنِ ٱلَّذِي فِي عَيْنَيهِ نُكْتَةُ بَيَاضٍ بِٱلمُكَوْكَبِ. وَعَمَّنْ فِي وَجْهِهِ اَثَرُ ضَرْبَةٍ بِٱلمُشَطَّبِ. وَلِبَعْضِهِمْ فِي اَبْرَصَ:

اَخُو لَخْمٍ اَعَارَكَ مِنْهُ ثَوْبًا ... هَنِيئًا بِٱلقَمِيصِ ٱلمُسْتَجَدِّ

اَرَادَ بِاَخِي لَخْمٍ جَذِيمَةَ ٱلاَبْرَصَ. وَلِلصَّاحِبِ فِي ٱلجَرَبِ:

اَبَا ٱلعَلَاءِ هِلَالُ ٱلهَزْلِ وَٱلجِدِّ ... كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتِي يَطْلُعْنَ فِي ٱلجِلْدِ

وَيُكَنَّى عَنِ ٱلحَولِ بِٱلتَّاَخُّرِ. قَالَ ٱلدُّؤَلِيُّ:

بِيضُ ٱلمَطَابِخِ لَا تَشْكُو اِمَاؤُهُمُ ... طَبْخَ ٱلقُدُورِ وَلَا غَسْلَ ٱلمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ:

ثِيَابُ طَبَّاخٍ اِذَا ٱتَّسَخَتْ ... اَنقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ ٱلخُوَارَزْمِيُّ:

فَتًى مُخْتَصِرُ ٱلمَأْكُو ... لِ وَٱلمَشْرُوبِ وَٱلعِطْرِ

نَقِيُّ ٱلكَأْسِ وَٱلقَصْعَةِ ... مِ وَٱلمِنْدِيلِ وَٱلقِدْرِ

وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ ٱلمُسْتَرِيحِينَ. وَيُرْوَى اَنَّ خِلَافًا وَقَعَ بَيْنَ بَعْضِ ٱلخُلَفَاءِ وَبَيْنَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسْاَلَةٍ. فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ اَهْلِ ٱلعِلْمِ فَاُحْضِرَ. فَوَجَدَ ٱلخَلِيفَةَ مُخْطِئًا فَقَالَ: ٱلقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاُطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اَرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ اَقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مَلُولًا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ   وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ
لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ   فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ   وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ   بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ   كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ   مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ   لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ .
وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمتُ بَرقَ ٱلوَزيرِ فَٱنهَلَّ حَتَّى ... لَمْ اَجِدْ مَهرَبًا اِلَى ٱلاَقـدامِ
فَـكَاَنّي وَقَدْ تَقَـاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ اَخضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلبَحرَ. وقَالَ ٱلحَجَّاجُ لِٱبنِ ٱلقَبعثَرِيِّ: لَاَحمِلَنَّكَ عَلَى ٱلاَدهَمِ. يَعنِي ٱلقَتلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيهِ وقَالَ: مِثلُ ٱلاَمِيرِ يَحمِـلُ عَلَى ٱلاَدهَمِ وَٱلاَشهَبِ. يُرِيدُ ٱلخَيلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: اَنَّ ٱلمَنصورَ كَانَ فِي بُستَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي اَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ اِبرَاهِيمَ بنَ عَبـدِاللهِ بنِ ٱلحَسَنِ وَنَظَرَ اِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا اَمِيرَ ٱلمُؤمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلمَنصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثلُ ذٰلِكَ: اَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيـدُ لِلفَضلِ بنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا اَمِيرَ ٱلمُؤمِنِينَ. وَكَرِهَ اَنْ يَقُولَ ٱلخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ اَيضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ قَولُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوبِ. يُرِيدُونَ بِهِ اَنَّهُ لَا عَيبَ فِيهِ وَلَيسَ بِمَوضُوعِ نَقَاءِ ٱلثَّوبِ ٱلبَرَاءَةَ مِنَ ٱلعَيبِ وَاِنَّمَا ٱستُعمِلَ فِيهِ تَمثِيلًا. وَقَالَ ٱمرُؤُ ٱلقَيسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَاَوجُهُهُمْ عِندَ ٱلمَشَاهِـدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَولُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوبِ. يُرِيدُونَ اَنَّهُ لَيسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوبِ اِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَولُهُمْ: طَيِّبُ ٱلحُجزَةِ اَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَـالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّونَ بِٱلرَّيحَانِ يَومَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلاَصمَعِيُّ: اِذَا قَالَتِ ٱلعَرَبُ: ٱلثَّوبَ وَٱلاِزَارَ. فَاِنَّهُمْ

يُرِيدُونَ ٱلبَدَنَ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ اَوْسَعُ بَنِي اُمَيَّةَ ثَوْبًا . اَيْ اَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا . وَفُلَانٌ غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ اِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلمَعْرُوفِ . قَالَ كُثَيِّرٌ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غُلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلمَالِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ . وَمِنَ ٱلكِنَايَاتِ ٱللَّطِيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلأُدَبَاءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلكِبَرِ . فَيَقُولُونَ : عَرَضَتْ لِفُلَانٍ فَتْرَةٌ . عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ . اَقْمَرَ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبَابِهِ . فَضَّضَ ٱلزَّمَانُ اَبْنُوسَهُ . وَجَاءَهُ ٱلنَّذِيرُ . وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلحِلْمِ . وَٱرْتَاضَ بِلِجَامِ ٱلدَّهْرِ . اَدْرَكَ زَمَانَ ٱلحُنْكَةِ . رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلحِجَى . وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلمَوْتِ : اَسْتَأْثَرَ ٱللهُ بِهِ . اَسْعَدَهُ ٱللهُ بِجِوَارِهِ . نَقَلَهُ اِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ . وَمَحَلِّ غُفْرَانِهِ . اِنْتَقَلَ اِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ اِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ . اِخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دَارِ ٱلبَوَارِ اِلَى دَارِ ٱلأَبْرَارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

اَلْمُبَالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحَاسِنِ فَنِّ ٱلكِتَابَةِ عِنْدَ ٱلجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ : اَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ اَكْذَبُهُ . وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

اَلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ:

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْساً وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ اَشْعَرَ بَيْتٍ اَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا اَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ اَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ اَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ. لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلِٱسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا اَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ. فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ. وَقَالُوا: رُبَّمَا اَنَّهَا اَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَاَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلِٱمْتِنَاعِ. وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلِٱسْتِحَالَةِ وَاَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ. وَٱلَّذِي اَقُولُهُ: إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ. وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ. وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ. وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى. وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ اَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلَ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ. (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عادةً . (وَٱلاِغرَاقُ) وصفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمكِنِ ٱلبعيدِ وُقُوعُهُ عادةً . (وَٱلغُلوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اوَّلًا انَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمكِنِ ٱلقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ انْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنًى قَصَدَهُ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ۝ وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى اَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَاطَاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا اَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ اَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلِٱلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ۝ دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ... وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ... وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ ... وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا أَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ . أَمَّا (ٱلْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلاصْطِلَاحِ اِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ انَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلْاِحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِٱمْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنَ اَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلِاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْاِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْاَبْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ اَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْاَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ اِلَى ٱلْاِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ اَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْاَنْفِ :

لَكَ اَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ   اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْاُنُوفُ
اَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م   فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَاسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا ... عَلَى ذُرْوَةٍ بِحَالَةٍ لَاسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخْيِيلَاتِ ٱلْمُحَسَّنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ ... تَجُدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقبولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً إِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا ... فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُؤَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا ... اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا ... فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ ... مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَأَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا ... كَأَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

---

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليـهِ عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُوَاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلْانْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَابِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ. وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ انَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : احَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . فَامَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اسْرِعْ اسْرِعْ . وَامَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَانَّ ٱلْامْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ انْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى . وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ انْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَٱعْلَمْ انَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ امْرِهِ . وَإِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ إِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اوْ فِي ذَمِّهِ اوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي احَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٌ مِنْهُ لِانَّ احَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ إِمَّا بِمَدْحٍ اوْ ذَمٍّ اوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ

(فأمَّا الأوّل وهو الذي يوجد في اللفظ والمعنى) فإنّه ينقسم إلى ضربين : مفيد وغير مفيد . (فالأوّل المفيد) وهو فرعان : (الأوّل) إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان . فمما يجري هذا المجرى قوله : بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله ربّ العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين . فكرّر (الرحمان الرحيم) مرّتين . والفائدة في ذلك أنّ الأوّل يتعلّق بأمر الدنيا كالخلق والعناية . والثاني يتعلّق بأمر الآخرة إشارة لرحمته يوم القيامة . (الفرع الثاني من الضرب الأوّل) إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله : فقتل كيف قدّر ثمّ قتل كيف قدّر . والتكرير دلالة التعجّب من تقريره وإصابته الغرض . وهذا كما يقال : قتله الله ما أشجعه أو ما أشجعه . وعليه ورد قول الشاعر :

ألا يا أسلمي ثمّ أسلمي ثمّت أسلمي

وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة . وكلّ هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته . واعلم أنّ من هذا النوع قسماً يكون المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ . وذلك يأتي في الألفاظ المترادفة . وقد ورد في القرآن واستعمل في فصيح الكلام فمنه قوله : والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم . والرجز هو العذاب . وعليه ورد قول أبي تمّام :

نهوض بثقل العبء مضطلع به ... وإن عظمت فيه الخطوب وجلّت

وَالثِقلُ هُوَ ٱلعِبءُ وَٱلعِبءُ هُوَ ٱلثِقلُ . وَرُبَّمَا اَشكَلَ هٰذَا ٱلمَوضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ ٱلتَّأكِيدُ لِلمَعْنَى ٱلمَقصُودِ وَٱلمُبَالَغَةُ فِيهِ. اَمَّا ٱلمُرَادُ بِقَولِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجزٍ) اَي عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَاَمَا بَيتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ ٱلمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلاَثقَالِ . وَهٰذَا ٱلمَوضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيهِ اَحَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي ٱلتَّكرِيرِ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوعِ مَا لَيسَ مِنهُ . فَمِنهُ قَولُهُ : ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعدِ ذٰلِكَ وَاَصلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَينِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى ٱلمَغفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ ٱلاَقوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلتَّكرِيرِ وَلَيسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ اَنعَمتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكمِ ٱلتَّكرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ ٱلفَصلُ مِنَ ٱلكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفهَمُ اِلَّا بِهِ فَٱلاَولَى فِي بَابِ ٱلفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ ٱللَّفظُ ٱلاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ ٱلفَصلِ كَيْ لَا يَجِيءَ ٱلكَلَامُ مَنثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا) . فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَينَ اَسمِهَا وَخَبَرِهَا فُسحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحسَنُ فِي حُكمِ ٱلبَلَاغَةِ وَٱلفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيهِ وَرَدَ قَولُ بَعضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلحَمَاسَةِ :

اَبَينًا وَقَيدًا وَٱشتِيَاقًا وَغُربَةً ... وَنَأيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَاِنَّ ٱمرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهدِهِ ... عَلَى مِثلِ مَا قَاسَيتُهُ لَكَرِيمُ

فإنَّهُ لمَّا طالَ الكلامُ بينَ اسمِ (إنَّ) وخبرِها أُعيدتْ (إنَّ) مرَّةً ثانيةً لأنَّ تقديرَ الكلامِ : وإنَّ امرءًا دامتْ مواثيقُ عهدِهِ على مثلِ هذا لكريمٌ . لكنْ بينَ الاسمِ والخبرِ مدًى طويلٌ فإذا لمْ تُعَدْ (إنَّ) مرَّةً ثانيةً لمْ يأتِ على الكلامِ بهجةٌ . وهذا لا يتنبَّهُ لاستعمالِهِ إلَّا الفصحاءُ إمَّا طبعًا وإمَّا علمًا . وكذلكَ يجري الأمرُ إذا كانَ خبرُ (إنَّ) عاملًا في معمولٍ يطولُ ذِكرُهُ فإنَّ إعادةَ الخبرِ ثانيةً هوَ الأحسنُ . وعلى هذا جاءَ قولُهُ في سورةِ يوسفَ إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ : يا أبتِ إنِّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبًا والشَّمسَ والقمرَ رأيتُهمْ لي ساجدينَ . فلمَّا قالَ : إنِّي رأيتُ ثمَّ طالَ الفصلُ كانَ الأحسنُ أنْ يعيدَ لفظَ (الرُّؤيةِ) فيقولَ : رأيتُهمْ لي ساجدينَ .

ومنْ بابِ (التَّكريرِ في اللَّفظِ والمعنى) الدَّالِّ على معنًى واحدٍ قولُهُ : وقالَ الَّذي آمنَ يا قومِ اتَّبعونِي أهدِكمْ سبيلَ الرَّشادِ . يا قومِ إنَّ هذهِ الدُّنيا متاعٌ وإنَّ الآخرةَ هيَ دارُ القرارِ . فإنَّهُ إنَّما كرَّرَ نداءَ قومِهِ هاهُنا لزيادةِ التَّنبيهِ لهمْ والإيقاظِ عنْ سِنةِ الغفلةِ ولأنَّهمْ قومُهُ وعشيرتُهُ فيتحزَّنُ لهمْ ويتلطَّفُ بهمْ فيستدعي بذلكَ أنْ ينزلوا على نصيحتِهِ . وهذا في التَّكريرِ الَّذي هوَ أبلغُ منَ الإيجازِ وأشدُّ موقعًا منَ الاختصارِ . وممَّا وردَ منْ هذا النَّوعِ شعرًا قولُ بعضِ شعراءِ الحماسةِ :

إلى معدِنِ العزِّ المؤثَّلِ والنَّدى   هُناكَ هُناكَ الفضلُ والخُلُقُ الجزلُ

فقولُهُ : هُناكَ هُناكَ منَ التَّكريرِ الَّذي هوَ أبلغُ منَ الإيجازِ

لِأَنَّهُ فِي مَعرِض مَدحٍ فَهُوَ يُقرِّرُ فِي نَفسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِندَ ٱلمَمدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَوصَافِ ٱلمَذكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلمُسَاوِرِ ٱبنِ هِندٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ　　إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُربَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ　　عَلَيَّ وَمَوجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلكُرَبِ عَلَيهِ كَتَعَالِي ٱلمَوجِ مِنْ فَوقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدحٍ وَإِطرَاءٍ أَلَا تُرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلقَومِ عِندَ حِدثَانِ دَهرِهِ فِي ٱلتَّكرِيرِ . وَفِي قَبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالمَدحِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكرِيرِ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى) وَهُوَ غَيرُ ٱلمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ مَروَانَ ٱلأَصغَرِ :

سَقَى ٱللهُ نَجدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجدٍ　　وَيَا حَبَّذَا نَجدٌ عَلَى ٱلقُربِ وَٱلبُعدِ
نَظَرتُ إِلَى نَجدٍ وَبَغدَادُ دُونَهَا　　لَعَلِّي أَرَى نَجدًا وَهَيهَاتَ مِنْ نَجدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكرَ نَجدٍ فِي ٱلبَيتِ ٱلأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيهِ نَاظِرًا مِنْ بَغدَادَ وَذٰلِكَ مَرمًى بَعِيدٌ . ٱلمَعنَى لَا يَحتَاجُ إِلَى مِثلِ هٰذَا ٱلتَّكرِيرِ . أَمَّا ٱلبَيتُ ٱلأَوَّلُ فَيُحمَلُ عَلَى ٱلجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمكِنُهُ أَنْ

يُسوّغ هذا ٱلمعنى ٱلوارِدَ فِي ٱلبيتَين معاً مِن غيرِ ان يأتي بهذا ٱلتكريرِ ٱلمتتابعِ سِتَّ مرّاتٍ . وعلى هذا ٱلأسلوبِ وردَ قولُ ابي نؤاس :

اَقمنا بِهَا يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً لهُ يومُ ٱلترحّلِ خامِسُ

ومُرادهُ مِن ذٰلك انّهم اقاموا بِهَا اربعةَ ايّامٍ . ويا عجباً لهُ بمثل هذا ٱلبيتِ ٱلسخيفِ ٱلدالِّ على ٱلعيِّ ٱلفاحِشِ فِي ضِمنِ ابياتٍ عجيبةِ ٱلحسنِ تتقدّمُ هذا ٱلبيتَ . ومِن هذا ٱلبابِ ايضاً قولُ ابي ٱلطيّبِ ٱلمتنبّي :

ولم ارَ مِثلَ جيرانِي ومِثلِي لِمِثلِي عِندَ مِثلِهِم مقامُ

فهذا هوَ ٱلتكريرُ ٱلفاحِشُ ٱلّذي يؤثّرُ فِي ٱلكلامِ نقصاً . الا ترى انّهُ يقولُ : لم ارَ مِثلَ جيرانِي فِي سوءِ ٱلجوارِ ولا مِثلِي فِي مُصابرتِهِم ومُقامِي عِندَهُم . إلّا انّهُ قد كرّرَ هذا ٱلمعنى فِي ٱلبيتِ مرّتَينِ . وعلى نحوٍ مِن ذٰلك جاءَ قولُهُ :

وقلقلتُ بِٱلهمِّ ٱلّذي قلقلَ ٱلحشَى قلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهنَّ قلاقِلُ

(وامّا ٱلقِسمُ ٱلثاني مِنَ ٱلتكريرِ وهوَ ٱلّذي يُوجدُ فِي ٱلمعنى دُونَ ٱللفظِ) فذٰلك ضربانِ : مُفيدٌ وغيرُ مُفيدٍ . (ٱلضربُ ٱلاوّلُ) ٱلمُفيدُ وهوَ فرعانِ : (ٱلاوّلُ) إذا كانَ ٱلتكريرُ فِي ٱلمعنى يدلُّ على معنيَينِ مُختلفَينِ وهوَ موضعٌ مِنَ ٱلتكريرِ مُشكِلٌ لانّهُ يَسبِقُ إلى ٱلوهمِ انّهُ تكريرٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ وهوَ ليسَ كذٰلكَ . . . بل يُقصدُ بِهِ ٱلتأكيدُ وٱلتقريرُ وٱلتنصُّلُ عمّا يُرمى بِهِ ٱلمتكلِّمُ . وممّا

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ . كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ . لِاَنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ اَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ اَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْاَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا اَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : اِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْاَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَاِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْاَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْاَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْاَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ اَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ اَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي اَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى اِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ مِنْ اَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَاِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَاِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَامْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ اوجزَ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْإِيجَازِ وَاولَى بِٱلْاسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي ابْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

تَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا ... بَعِيدًا عَنِ ٱلْاوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ ... وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ اهْلِي

فَإِنَّ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلْإِفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْإِحْسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا ... وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا اثْلَاثَا

فَإِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْاكْثَرُ مِنْهُمْ اجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْالْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِمَعِيبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ انَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا إِذَا اتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . امَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْابْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَامَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْاعْجَازُ مِنَ ٱلْابْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِانَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ إِلَيهَا وَٱلْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللاَّمِيَّةِ ٱلَّتِي مَطْلَعُهَا :

أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلاَّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ   قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لاَ يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لاَ يَبِيتُ بِأَوْجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَاتَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا   إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا
هَلاَّ ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً   مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلْبَاءُ . وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ أَحَدُهُما مَسَدَّ ٱلآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ. وَٱلتَّشْبِيهُ ٱلبَلِيغُ هُوَ إِخْرَاجُ ٱلأَغْمَضِ إِلَى ٱلأَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى ٱشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: ٱلتَّشْبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ إِيَّاهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: خَدٌّ كَالْوَرْدِ إِنَّمَا مُرَادُهُمْ ٱحْمِرَارُ أَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه). وَقِيلَ: ٱلتَّشْبِيهُ إِلْحَاقُ أَدْنَى ٱلشَّيْئَيْنِ بِأَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ ٱشْتَرَكَا فِي أَصْلِهَا وَٱخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا. قُلْتُ: وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ. وَأَوْرَدَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى ٱلْحَدِّ وَهُوَ: أَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ ٱلْجَوْهَرِ بِٱلْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْعَرَضِ بِٱلْعَرَضِ كَقَوْلِكَ: حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ كَحُمْرَةِ ٱلْوَرْدِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْجِسْمِ بِٱلْجِسْمِ كَقَوْلِكَ: ٱلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ ٱلزُّمُرُّدِ. (وَٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِٱلذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ. كَقَوْلِكَ: حَاتِمٌ كَٱلْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَٱلضِّرْغَامِ. وَتَشْبِيهُ ٱلِٱتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلْأَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ. وَتَشْبِيهُ ٱلِٱخْتِلَافِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلْمُرَادُ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ لِإِخْرَاجِهِ ٱلْخَفِيَّ إِلَى ٱلْجَلِيِّ وَإِدْنَائِهِ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْقَرِيبِ. وَهُوَ حُكْمٌ إِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ ٱلْحُكْمُ

انَّهُ إِذا صَحَّتِ ٱلْاستعارة حسن ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشبيهِ فَإِنَّ ٱلْمشابَهة إِذا قُرِنتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلْاسْتِعارةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلا تقول: كَأَنَّكَ اوقعتني في ظُلْمةٍ إِذا اوقعكَ فِي شُبْهَةٍ . وفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فكأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي او كَأَنَّ نُوراً حصل في قلبي. لِتَمكُّن هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صارتْ حقيقيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائدهِ

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ انَّ لِلتَّشْبِيهِ أَدَوَاتٍ كَنَحْوٍ وكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا أُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ

كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ م وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

لَا جَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي

نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ

كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضمرِ ٱلأَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيلَ لِبَاسًا. فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ انَّهُ يَستُرُ ٱلنَّاسَ بَعضَهُمْ عَنْ بَعضٍ لِمَنْ ارَادَ هَربًا مِنْ عَدُوٍّ او ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ او اخفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلأَطِّلَاعَ عَلَيهِ مِنْ أَمرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلأَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَولُ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا ٱلأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ ابْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ وَاوجَزُ . امَّا كَوْنُهُ ابلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيرِ وَاسِطَةِ اَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ اذَا قُلْتَ : زَيْدٌ اَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ اسَدًا مِنْ غَيرِ إِظْهَارِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَامَّا كَوْنُهُ اوجَزَ فَلِحَذْفِ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اسَدٌ . انْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلإِقْدَامِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا انَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيهِ سِوَى انْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلأَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اكْشَفَ وَابْيَنَ مِنْ انْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَاشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنَ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اعْنِي ٱلأَسَدَ . وَامَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَالْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعَرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا مَثَّلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَيَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تقولُ هٰذا مُجاجُ ٱلنَّحلِ تمدحهُ ... وَإِنْ تعِبْ قُلتَ ذَا قَيءُ ٱلزَّنابِيرِ

أَلَا تَرى كَيفَ مَدحَ وذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلمَجَازِيِّ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلى ٱلسَّامِعِ خَيالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخرى. ولَوْلَا ٱلتَّوصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشبِيهِ عَلى هٰذا ٱلوَجهِ لَمَا أَمكَنَهُ ذٰلِكَ. وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًا كَقَوْلِنَا: أَقدَمَ إِقْدَامَ ٱلأَسَدِ وَفَاضَ فَيضَ ٱلبَحرِ. وَهُوَ أَحسَنُ مَا ٱستُعمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشبِيهِ. كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي وَصفِ ٱلخَمْرِ:

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا ... وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلجَرَادْ

وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا ... أَخَذَتْ أَخذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ: إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكبَرُ مِنهُ وَأَعظَمُ. وَٱلقَولُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ: وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلأَصغَرُ بِٱلأَكبَرِ قَوْلٌ غَيرُ حَاصِرٍ لِلغَرَضِ ٱلمَقصُودِ. لِأَنَّ ٱلتَّشبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلمَدحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ. وَتَارَةً فِي غَيرِ مَعرِضِ مَدحٍ وَلَا ذَمٍّ. وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلإِبَانَةِ وَٱلإِيضَاحِ. وَلَا يَكُونُ تَشبِيهُ أَصغَرَ بِأَكبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيهِ مَن ذَهَبَ. بَلِ ٱلقَولُ ٱلجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعمَدُ إِلَيهِ إِلَّا لِضَربٍ مِنَ ٱلمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلأَمرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفظَةِ افعلَ (يُرِيدُ افعلَ ٱلتَّفْضِيلِ). فَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفعلَ) فَلَيس بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ. اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ: زَيْدٌ اَسَدٌ. فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا إِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ. وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ كَقَوْلِهِ: وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ. وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ. لِأَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ. وَمِثْلُهُ: إِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَهٰكَذَا: إِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَإِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْإِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ. فَتَقْدِيرُ لَفظَةِ (اَفعلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ): اَلْأَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْأُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبصرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . اَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْاَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِاسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَالصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْاَخْلَاقِ . اَوْ فِي حَالَةٍ اِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَالشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ اَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : اَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَالنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ اِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْاَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى اَيْنَ طَرَفَاهَا . فَاِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ اِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا اَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ اَصْلًا وَٱلْاَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَاَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَاَنَّهَا نُجُومٌ . وَاِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْاَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ

وَعِظَامٍ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوْقَ ٱلْأَرْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ : مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا . وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ : ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ . وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ . كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ . فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلْأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ . وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ : أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا . وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ . فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا . ثُمَّ

يُتخَيَّلُ اصلًا فيُشَبَّهُ بِهِ. وهٰذا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ ابي طالبٍ ٱلرَّقّيّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَأَنَّهُ   يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَإِنَّهُ لَمَّا كانَتِ ٱلاوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ: ٱسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جعل يَوْمَ ٱلنَّوَى كَأَنَّهُ اشْهَرُ وَاعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فعرَّفَهُ بِهِ وشَبَّهَهُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ. فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِسْ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اهْدَى لِلْقَاضِي ابِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا ايُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ   فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ   فَكَأَنَّمَا اهْدِي لَهُ اخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسَ ٱلْأَمْرَ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنُفُهُ   وَهْمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِأَنَّهُ لَمَّا ارْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ انَّهُ مَحْسُوسٌ لِاظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْأَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يَتِمُّ إِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ امُورًا كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْأَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيــقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَـدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ . لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِـينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِأَعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَـةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرٌ إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَعْقُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ) . وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدَوْا بَـلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كان التشبيه اوغل في كونه عقليًا كقوله : انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالامس . فان التشبيه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير ان يمكن فصل بعضها من بعض . فانك لو حذفت منها جملة واحدة من اي موضع كان اخل ذلك بالمقصود من التشبيه . ثم ما به المشابهة ان كان مركبًا فانه على قسمين : (الاول) ما لا يمكن افراد احد اجزائه بالذكر كقوله :

كأن سهيلًا والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها امامها

فانه لا يمكن افراد اجزاء هذا التشبيه اذ لو قلت : كأن سهيلًا امام وكأن النجوم صفوف صلاة . ذهبت فائدة هذا التشبيه . (الثاني) ما يمكن افراده بالذكر ويكون اذا ازيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه الا ان المعنى متغير كقول ابي طالب الرقي :

وكأن اجرام النجوم لوامعًا درر نثرن على بساط ازرق

فلو قلت : كأن النجوم درر وكأن السماء بساط ازرق وجدت التشبيه مقبولًا . ولكن المقصود من الهيئة المشبه بها قد زال . وربما كان التشبيه في امور كثيرة ولا يتقيد بعضها ببعض . وانما يكون بعضها مضمومًا الى البعض وكل واحد منها منفرد بنفسه

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالأَسَدِ بَأْساً وَٱلْبَحْرِ جُوداً وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلنَّفْعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَاماً فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ⁂ فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطَّيِّبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا ⁂ إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حُرِّ

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ ⁂ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ ⁂ أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخَبَّأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَأَنبأؤكَ تأتينا كما وشى بِٱلمِسكِ رَيّاه . وَنَمَّ عَلَى ٱلصَّباحِ مُحيّاه .
وَقالَ : ٱلرَّجلُ ذُو ٱلمُرُوءَةِ يُكرَمُ عَلَى غَيرِ مَالٍ . كَٱلأَسدِ يُهابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضاً . وَٱلرَّجلُ ٱلَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهانُ وَإِنْ كَانَ غَنِيّاً . كَٱلكَلبِ يَهُونُ عَلَى ٱلنَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلمُذْنِبِ أَنْ يُفحَصَ عَنْ أَمرِهِ لِقُبحِ مَا يَنكَشِفُ مِنهُ كَٱلشَّيءِ ٱلمُنتِنِ كُلَّمَا أُثِيرَ ٱزْدَادَ نَتَناً . وَقَالَ أَيضاً : مَنْ يَصنَعِ ٱلمَعرُوفَ لِعَاجِلِ ٱلجَزَاءِ فَهُوَ كَمُلقِي ٱلحَبِّ لِلطَّيرِ لَا لِيَنفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ أَيضاً : ٱلمَالُ إِذَا ٱجتَمَعَ وَلَمْ يُصرَفْ فِي ٱلحُقُوقِ أَسرَعَ إِلَيهِ ٱلهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجهٍ كَٱلمَاءِ إِذَا ٱجتَمَعَ فِي مَوضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلنُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ فَضَاعَ . وَقَالَ أَيضاً : يَبقَى ٱلصَّالِحُ مِنَ ٱلرِّجَالِ صَالِحاً حَتَّى يُصَاحِبَ فَاسِداً فَإِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثلُ مِيَاهِ ٱلأَنهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ مَاءَ ٱلبَحرِ فَإِذَا خَالَطَتهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلحَسَنَةِ قَولُ جَعفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ : ٱلأَدَبُ عِندَ ٱلأَحمَقِ كَٱلمَاءِ ٱلعَذبِ فِي أُصُولِ ٱلحَنظَلِ كُلَّمَا ٱزْدَادَ رِيّاً ٱزْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلشِّعرِيَّةِ ٱلبَدِيعَةِ قَولُ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلمَرءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بَعدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا ٱلمَالُ وَٱلأَهلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوماً أَنْ تُرَدَّ ٱلوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَأَصبَحتُ مِثلَ ٱلسَّيفِ أَخلَقَ جَفنَهُ ... تَقَادُمُ عَهدِ ٱلقَينِ وَٱلنَّصلُ قَاطِعُ

وَكَقَولِ صَالِحِ بنِ جَنَاحٍ ٱلعَبسِيِّ :

أَلَا إِنَّمَا ٱلإِنسَانُ غِمدٌ لِقَلبِهِ ... وَلَا خَيرَ فِي غِمدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا ... وَلَاظِلَّ إِلَّا انْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخلِ

وَقَالَ ٱلأَخطَلُ ٱلنَّصرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفتقَرتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَم تَجِدْ ... ذُخرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلأَعمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمسٌ وَٱلأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلغَيْثِ مُنْسَكِبًا

لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ

وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ.

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلأَوْبَةِ وَتَقَلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرَ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنتَ حُسَامُ ٱلمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ ... وَأَنتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ   يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعُرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ   يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا   يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا   جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ   وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا   وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا   كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م   ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ   أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بِذَاتِهِ. لِاَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ اَدَّى اِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ. وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِجُمْلَةٍ فَاِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ اَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ اِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَاَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْاَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ اَصْلًا. وَهٰذَا اَبْلَغُ وَاَحْسَنُ وَاَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ. لِاَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ اَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ. وَاِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَاِذْ ذَكَرْنَا اَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي اِقْتِفَاءُ اَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْاِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى اَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِاَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ اَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ اَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ. فَاِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ. وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ لَا يَكُونُ اِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ امسَتْ   تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ اَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً   وَذَهَبْتَ اَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاِهَابَ وَمَا بَقِي   مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ. فَاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَقُولَ : ذَهَبْتَ بِٱلْاَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاَدْنَى. اَوْ : ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيَّ. وَامَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلْاَدَاةِ) فَهٰذِهِ اَمْثَالٌ اَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى اَشْبَاهِهِ فَاِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

تَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَاَنَّهُ   ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ اَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ   قِدَاحٌ كَاَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ   جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ اَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي   فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ أَهْلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ   ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُضِيئًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي أَقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا   نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرْجِعُ ٱلْعُودَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ   كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبِّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ أَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَأَمَسُّ بِأَهْلِهِ

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرَ ٱللهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ۞ وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ۞ لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِي جَانِبٌ ۞ مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلوكٌ وَإِخوانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهم ... أُحكَّمُ فِي أَموالِهِمْ وَأُقرَّبُ
كَفِعلِكَ فِي قَومٍ أَراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدحِهِمْ لَكَ أَذنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ: أَنتَ أَحسَنتَ إِلَى قَومٍ فَمَدَحُوكَ. وَأَنَا أَحسَنَ إِلَيَّ قَومٌ فَمَدَحْتُهُمْ. فَكَمَا أَنَّ مَدحَ مَنْ أَحسَنتَ إِلَيهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنبًا فَكَذَا مَدحِي لِمَنْ أَحسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنبًا. قَالَ ٱبنُ أَبِي ٱلْإِصبَعِ: وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَولُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ ... وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى ... إِذَا قَلَّ مِنْ أَحرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ: لِكُلِّ إِنسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ. وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ. وَٱلْإِنسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخرَى. وَأَنتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ. فَأَنتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ. وَإِمَّا شَرْطِيٌّ. فَالْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ: مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ. فَقَالَ لَهُ: مِمَّنْ أَنتَ. فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ. فَقَالَ أَبُو دُلَفَ:

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَو سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ: نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ. فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ أَلْزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ. وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرًا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرًا وبكيتم قليلًا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم للتساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني

الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوَّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدَكَ ٱللّٰهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفْظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْاَوَّلِ :

هُمُ ٱلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ:

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادَ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لِذِي ٱلْحَقِّ مَحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي وَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى:

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ:

وَلَسْتُ بِخَابِيءٍ ابَدًا طَعَامًا حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ. فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ. وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ. وَسَلِمَ مِنْ سَخَفِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ. وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ. وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ. وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِيِّ ٱلْبَشِعِ. وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفُرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ. وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ. وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفُرُ لِلْمُنْتِنِ. وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ. وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ. وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ. وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ. وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ. وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ أَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا. وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ. أَلَا تَرَى

إلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ أُمَّـةٍ   بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ. وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ أَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْأَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِإِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِأَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْإِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْكَلَامِ وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِيهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ. وَأَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي. وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى أَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَلِهٰذَا تَأَنَّقَ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا. وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ. وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا. وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ: أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَـةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا   وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ. وَإِنَّمَا

هيَ : وَلَمَّا قَضَينا ٱلحجَّ وَمَسَحنَا ٱلأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهازِيلِ ٱلإبلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بعضُنَا بعضًا جعلنَا نَتَحَدَّثُ وتَسِيرُ بِنَا ٱلإبِلُ فِي بُطُونِ ٱلأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوابًا وَٱللَّفظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلفُوظًا وَمَذمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعرِ كَقَوْلِ عَمرِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلمَى وَجَارَاتُهَا ... مَا قَطَّــرَ ٱلفَارِسُ إِلاَّ أَنَا
شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ ... وَٱلخَيلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ ... رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي ... يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصَدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَ ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لِخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الشِّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى السَّهْلُ اللَّفْظِ الْعَذْبُ الْمُسْتَمَعِ الْقَلِيلُ النَّظِيرِ الْعَزِيزُ التَّشْبِيهِ الْمُطْمِعُ الْمُمْتَنِعُ الْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ الصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا الْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ السَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَالْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي الْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ الْمَنْظُومِ الْمُطْمِعِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الَّذِي طَلَبَ الْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ الْمَطَايَا وَأَنْضَى
رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا
هُوَ أَنْدَى مِنَ الْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى
يَتَوَخَّى الْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ الْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا
فَضَّلَ اللهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا
وَأَرَى الْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ اللهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدَا
أَكْرَمُ النَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م النَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ   مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا   وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي   شُكْرَ اِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَامَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ اِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا . فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ   فَحَطَّ اِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى   وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْاَمْرُ ٱلْاَبِيُّ بِحَزْمِهِ   اِذَا ٱلْاَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْاَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالٍ وَكَثْرَتِهِ   قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ
اَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ   وَفِي اَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَاِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى اَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : اَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَاَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ : وَاَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ اِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ اِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ اِلَّا بِٱلْاِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ اِلَّا بِٱلْاِعْتِرَافِ . نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْاَيَّامِ فَاَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَاِنْ رَاَيْتَ اَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وتجدّدَ ٱلنِعمَةَ بٱطِّراحِ ٱلحقدِ فإنَّ قديمَ ٱلحُرمَةِ وحديثَ ٱلتوبةِ يمحقانِ ما بينهما مِنَ ٱلاساءةِ . فإنَّ ايامَ ٱلقُدرةِ وإن طالت قصيرةٌ وٱلمتعةَ بها وإن كثرت قليلةٌ فعلتَ . وفي هذا ٱلكلامِ وما قبلهُ قوةٌ في سهولةٍ . ومِمَّا هو اجزلُ من هذا قولُ ٱلشَّعبيّ لِلحجّاجِ وأرادَ قتلهُ لِخروجهِ عليهِ مع ٱبنِ ٱلاشعثِ : اجدبَ بنا ٱلجنابُ وأحزنَ بنا ٱلمنزلُ وٱستحلسنا ٱلحذرَ وٱكتحلنا ٱلسهرَ . وأصابتنا فتنةٌ ولم نكن فيها بررةً أتقياءَ ولا فجرةً اقوياءَ . فعفا عنهُ . وأجودُ ٱلكلامِ ما يكونُ جزلاً سهلاً لا ينغلقُ معناهُ ولا يستبهمُ مغزاهُ . ولا يكونُ مكدودًا مستكرهًا ومتوعرًا متقعرًا . ويكونُ بريئًا مِنَ ٱلغثاثةِ عاريًا مِنَ ٱلرثاثةِ . وٱلكلامُ إذا كانَ لفظهُ غثًّا ومعرضهُ رثًّا كانَ مردودًا ولو احتوى على اجلّ معنى وأنبلهِ وأرفعهِ وأفضلهِ كقولهِ :

لمَّا اطعناكُمُ في سخطِ خالقِنا ... لاشكَّ سُلَّ علينا سيفُ نِقمتِهِ

وقولِ ٱلآخرِ :

ارى رِجالًا بأدنى ٱلدِينِ قد قنِعوا ... ولا اراهم رضوا في ٱلعَيشِ بٱلدُّونِ

فٱستغنِ بٱلدّينِ عن دُنيا ٱلمُلوكِ كما ... ٱستغنى ٱلملوكُ بِدُنياهُم عنِ ٱلدّينِ

ولا يدخلُ هذا في جملةِ ٱلمختارِ ومعناهُ كما ترى نبيلٌ فاضلٌ جليلٌ . وأمَّا ٱلجزلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلفجُّ ٱلذي ينبغي تركُ ٱستعمالهِ فمثلُ قولِ تأبَّطَ شرًّا وكانَ خرجَ معَ صاحبينِ لهُ فقُتِلا في ٱلغزوِ ورجعَ هوَ سالمًا :

إذا ما تركتُ صاحبي لِثلاثةٍ ... اوِ ٱثنينِ مِثلَينا فلا أُبتُ آمِنا

ولمَّا سمعتُ ٱلعوصَ تدعو تنفَّرتْ ... عصافيرُ رأسي مِن غُواةٍ فراتِنا

وَخَثْخَثْتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَزَجُّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهَذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى. وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ.

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيُتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ . وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهَهُ وَأَمْثَالَهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنْهَا ٱلْغَلَطُ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَأَنْتَ تُرِيدُ : ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطْتَ . فَإِنْ تَعَمَّدْتَ ذَلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ أَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَتَجَنَّبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا أَوْرَدْتُ دَلَالَةٌ عَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَلَمْ تَسْأَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا ... كَأَنِّي أُنَادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَأَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ. وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي ٱمْرَأَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ
كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْأَةَ عِنْدَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا ... وَدِرَاسُ أَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ أَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَأَصْلُهُ : رَنْدَهْ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ أَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ أَنَابِيبُ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَإِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا أُخِذَ عَلَى

أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ قَوْلُهُ فِي ٱلْفَرَسِ :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ   وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ اَخْرَجَ مُهْذِبِ

فَلَوْ وَصَفَ اَخَسَّ حِمَارٍ وَاَضْعَفَهُ مَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُهُ :

عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِـهِ   اَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرِ كَزٍّ وَلَا وَانِي

وَمَا سَمِعْنَا اَجْوَدَ وَلَا اَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ : اَفَانِينَ جَرْيٍ . وَقَوْلُ عَلْقَمَةَ :

فَاَدْرَكَهُنَّ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ   يَمُرُّ كَمَرِّ ٱلرَّائِحِ ٱلْمُتَحَلِّبِ

فَاَدْرَكَ طَرِيدَتَهُ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَمْ يَضْرِبْهُ بِسَوْطٍ وَلَمْ يُمْرِهِ بِسَاقٍ وَلَمْ يَزْجُرْهُ بِصَوْتٍ وَمِمَّا يُعَابُ قَوْلُ ٱلْاَخْطَلِ :

وَقَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ ٱلْخِلَافَـةَ مِنْهُمُ   لِاَبْلَجَ لَا عَارِي ٱلْخِوَانِ وَلَا جَذْبِ

يَقُولُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ . وَمِثْلُ هٰذَا لَا يُمْدَحُ بِهِ ٱلْمُلُوكُ . وَاِنَّمَا تُمْدَحُ ٱلْمُلُوكُ بِمِثْلِ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا   وَهِمَّتُهُ ٱلصُّغْرَى اَجَلُّ مِنَ ٱلدَّهْرِ

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ اَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا   عَلَى ٱلْبَرِّ كَانَ ٱلْبَرُّ اَنْدَى مِنَ ٱلْبَحْرِ

وَمِنَ ٱلْخَطَاءِ قَوْلُ جُنَادَةَ :

مِنْ حُبِّهِ اَتَمَنَّى اَنْ يُلَاقِيَنِي   مِنْ نَحْوِ بَلْدَتِهِ نَاعٍ فَيَنْعَاهُ

لِكَيْ يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ   وَتُضْمِرَ ٱلنَّفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاهُ

فَاِذَا تَمَنَّى ٱلْمُحِبُّ لِحَبِيبِهِ ٱلْمَوْتَ فَمَا عَسَى اَنْ يَتَمَنَّى ٱلْمُبْغِضُ لِبَغِيضِهِ . وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ :

اَلَا لَيْتَنَا عِشْنَا جَمِيعًا وَكَانَ بِي   مِنَ ٱلدَّاءِ مَا لَا يَعْرِفُ ٱلنَّاسُ مَا بِيَا

فَهٰذَا اَقْرَبُ اِلَى ٱلصَّوَابِ وَلَوْ اَنَّ جُنَادَةَ كَانَ يَتَمَنَّى وَصْلَهُ وَلِقَاءَهُ

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ . كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَآخَزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللّٰهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى . وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ . وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : اذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ . فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيس ٱلرَّقِيَّات فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ
مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى أَتَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ
مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ
وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ
فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَالْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَٱلِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا

لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ بِهِ لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا ٱلْمَالَ يُخْوِلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا ٱسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضاً بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يكُ من فضلٍ اتوه فانما   نوارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه   وتغرس الا في منابتها النخل

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم   اسودٌ لهم في غيل خفان اشبل
هم المانعون الجار حتى كأنما   لجارهم فوق السماكين منزل
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن   كأولهم في الجاهلية اول
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا   اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم   وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاثٌ بامثال الجبال حباهم   واحلامهم منها لدى الوزن اثقل

وكقول الآخر :

علم الغيث الندى حتى اذا   ما حكاه علم البأس الاسد
فله الغيث مقرٌّ بالندى   وله الليث مقرٌّ بالجلد

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه. وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلت يدٌ خالديةٌ   رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل قل : برمكيةٌ . فقد يشركنا في خالدٍ بشرٌ كثيرٌ ولا يشركنا في برمك احدٌ

وَٱلْهِجَاء ايضًا اذا لَم يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفسُ وَاثبَاتِ ٱلصِفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ايضًا لَمْ يَكُنْ مُختارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ انْ تَنسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاء انْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى　　بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ　　وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاوهُ فَازْدَرَوهُ وَهْوَ حِذْقٌ　　وَيَنْفَعُ اهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ انَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيس بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا انَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا　　فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

اَللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ　　وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ امِنُوا　　مِنْ لُؤْمِ احْسَابِهِمْ انْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ　　كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ　　مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ. وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ: وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ:

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنْجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمِّرَتْ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ). وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ: لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ:) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ: لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ. وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ:

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فقولهُ: (كأنَّهُ مشمومُ) هُجنةٌ وقولهُ: (في الأنف أهجنُ). لأنَّ الشمَّ لا يكونُ بالعينِ. ومِنَ المتناقضِ قولُ عُروةَ بنِ أُذينةَ:

نزلوا ثلاثَ مِنًى بمنزلِ غِبطةٍ ... وهُمُ على غرضٍ لعمرُكَ ما هُمُ

متجاورينَ بغيرِ دارِ إقامةٍ ... لو قد أجدَّ رحيلُهم لم يندموا

(فقال) لبثوا في دارِ غِبطةٍ ثمَّ قالَ: لو رحلوا لم يندموا. ومِمَّا جاءَ في ذلكَ مِنْ أشعارِ المحدثينَ قولُ بشَّارٍ:

وإذا أدنيتَ منها بصلًا ... غلبَ المسكُ على ريحِ البصلْ

ومِنَ المعاني البشعةِ قولُ أبي نُواسٍ:

يا أحمدَ المُرتجى في كلِّ نائبةٍ ... قُمْ سيِّدي نعصِ جبَّارَ السماواتِ

فهذا مع كفرهِ ممقوتٌ. ومِنَ الخطإِ قولُ أبي العتاهيةِ:

غنيتَ على الوصلِ القديمِ غنيتا ... وضيَّعتَ وُدًّا كانَ لي ونسيتا

ومِنْ أعجبِ الأشياءِ أن ماتَ مألفي ... وما كنتَ ترعاني لهُ وبقيتا

تجاهلتَ عمَّا كنتَ تحسنُ وصفهُ ... ومُتَّ عنِ الإحسانِ حينَ حييتا

وليسَ مِنَ العجبِ أنْ يموتَ إنسانٌ ويبقى بعدهُ إنسانٌ آخرُ. بلْ هذهِ عادةُ الدُّنيا والمعهودُ مِنْ أمرها ولو قالَ: (مِنْ ظُلمِ الأيَّامِ) كانَ المعنى مستويًا. وسمعتُ بعضَ الأدباءِ يقولُ: ومِنَ المعاني الباردةِ قولُ أبي نُؤاسٍ في صفةِ البازي:

في هامةٍ غلباءَ تهدي منسرا ... كعطفةِ الجيمِ بكفِّ أعسرا

ثمَّ قالَ:

يقولُ مَنْ فيها بعقلٍ فكَّرا ... لو زادها عينًا إلى فاءٍ ورا

فَٱتَّصلَتْ بِٱلْجيمِ صَارَ جعفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ انَّ ٱلْجيمَ اِذَا أُضِيفَ اِلَيْهَا ٱلْعَيْنُ وَٱلْفَاءُ وَٱلرَّاءُ يَصِيرُ (جعفرًا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ :

هُنَّ ٱلْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً   مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي جَهِلَ انَّ ٱلْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَإِنَّمَا ارَادَ ابُو نُوَاسٍ انَّهُ يُشَبِّهُ ٱلْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ ٱلْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا انَّهُ لَوِ ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ ٱلزِّيَادَةَ ٱلَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اجْوَدَ وَارْشَقَ وَادْخَلَ فِي مَذَاهِبِ ٱلْفُصَحَاءِ وَاشْبَهَ بِٱلشِّعْرِ ٱلْقَدِيمِ. وَامَّا قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ : فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ انَّهُ ارَادَ انَّكَ اِذَا اَرَدتَّ ٱلزَّجْرَ وَٱلْعِيَافَةَ اَدَّاكَ ٱلْحَمَامُ اِلَى ٱلْحِمَامِ كَمَا انَّ صَوْتَهَا ٱلَّذِي تَظُنُّ انَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى ٱلْبُكَاءِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا انَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ مِنَ ٱلدِّقَّةِ كَانَ كَٱلْمُعَمَّى وَٱلتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ ٱلْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْاَسَدِ:

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ   بَارِزَةَ ٱلْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ ٱلْاَسَدِ بِٱلْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِٱلْغُؤُورِ كَقَوْلِ ابِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَٱلْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ   تَرَى فِيهِمَا كَٱلْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ ٱلْغَلَطِ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ :

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرُّجْحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ:

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ   وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَإِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا: خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ.

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ   ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا   بِٱلدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا أَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ. وَقَدْ شَهِدَ أَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْأَوَّلَ فَقَالَ:

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ   وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ   مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَإِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَإِذَا أُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ. وَمِنْ أَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ. وَقَالُوا: كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ. وَإِذَا ٱصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي إِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ أَيْضًا خَطَأٌ. وَلَوْ قَالَ: (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ أَجْوَدَ. وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ. فَأَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ. وَفِيهَا:

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْأَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ   كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِأَنَّ ٱلبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا أَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَظِّمَ أَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِأَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰا هُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ أَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

أَلَا مَنْ رَأَى قَوْمِي كَأَنَّ رِجَالَهُمْ نَخِيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فَأَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ
إِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ أَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ أَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْإِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ أَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَأَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلآنَ ٱلوصفَ وتركْتُ ٱلمَراثِي وٱلفخر . لِانَّهما داخِلانِ فِي ٱلمَديحِ وذٰلِكَ انَّ ٱلفخرَ مدحُكَ نفسَكَ بِٱلطَّهارَةِ وٱلعفافِ وٱلحِلمِ وٱلعِلمِ وٱلحسبِ وما يَجري مَجرى ذٰلِكَ . وٱلمَرثِيَةُ مَدحُ ٱلمَيتِ وٱلفرقُ بَينَهُما وبينَ ٱلمَديحِ انْ تَقُولَ : كَانَ كَذا وَكَذا . وتقولُ فِي ٱلمديحِ : هُوَ كَذا وَانتَ كَذا . فينبَغِي انْ يُتوخَّى فِي ٱلمَرثِيَةِ ما يُتوخَّى فِي ٱلمَديحِ . اِلَّا انَّكَ اِذا اردتَّ انْ تذكُرَ ٱلمَيتَ بِٱلجُودِ وٱلشَّجاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلجُودُ وهلَكَتِ ٱلشَّجاعَةُ . ولَا تقولُ : كانَ فُلانٌ جَوادًا وَشُجاعًا فَاِنَّ ذٰلِكَ بارِدٌ غيرُ مُستَحسَنٍ . وكَذٰلِكَ ما كانَ ٱلمَيتُ يَركَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فينبَغِي انَّهُ لا يُذكَرَ انَّهُ يَبكِي عليهِ مِثلُ ٱلخَيلِ وٱلابِلِ وما يَجري مَجراهُما وَانَّما يُذكَرُ اغتِباطُهُما بِموتِهِ . وقَدْ احسَنَتِ ٱلخَنساءُ حَيثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فقَدَتكَ طَلقَةُ وَاستَراحتْ   فَلَيتَ ٱلخَيلَ فارِسُها يَراها

بَلْ يُوصَفُ بِٱلبُكاءِ عليهِ مَنْ كانَ يُحسِنُ اِليهِ فِي حياتِهِ . كَما قالَ ٱلغَنَوِيُّ :

لِيَبكِكَ شَيخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ   وطاوِي ٱلحَشَى نائِي ٱلمَزارِ غَرِيبُ

فهٰذِهِ جُملَةٌ اِذا تدبَّرها صانِعُ ٱلكلامِ ٱستغنى بِها عَنْ غَيرِها . وَبِٱللهِ ٱلتَّوفِيقُ

البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا اردتَّ انْ تَصْنعَ كَلَامًا فَاَخْطِرْ مَعَانِيَهُ بِبالِكَ وَتنوَّقْ لَهُ كَرائِمَ ٱللَّفظِ وَٱجْعلْهَا عَلَى ذِكْرٍ مِنكَ لِيَقْرُبَ عَلَيْكَ تَنَاوُلُهَا وَلَا يُتْعِبكَ تَطَلُّبهَا . وَٱعْمَلْهُ مَا دُمْتَ فِي شَبَابِ نَشَاطِكَ فَإِذَا غَشِيَكَ ٱلْفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ ٱلْمَلَالُ فَاَمْسِكْ . فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَ ٱلْمَلَالِ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَ ٱلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَٱلْخَوَاطِرَ كَٱلْيَنَابِيعِ يُسْقَى مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ فَتَجِدُ حَاجَتَكَ مِنَ ٱلرِّيِّ وَتَنَالُ اَرَبَكَ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ. فَإِذَا اَكْثَرْتَ عَلَيْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا وَقَلَّ عَنْكَ غَنَاؤُهَا. وَيَنْبَغِي اَنْ تَجْرِيَ مَعَ ٱلْكَلَامِ مُعَارَضَةً فَإِذَا مَرَرْتَ بِلَفْظٍ حَسَنٍ اَخَذْتَ بِرَقَبَتِهِ اَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقْتَ بِذَيْلِهِ . وَتَحَذَّرْ اَنْ يَسْبِقَكَ فَإِنَّهُ إِنْ سَبَقَكَ تَعِبْتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبْتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلْحَقُهُ عَلَى طُولِ ٱلطَّلَبِ وَمُوَاصَلَةِ ٱلدَّأْبِ وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعْتَ اَوَّلَ كُلِّ اَمْرٍ   اَبَتْ اَعْجَازُهُ إِلَّا ٱلْتِوَاءَ

وَقَالُوا : يَنْبَغِي لِصَانِعِ ٱلْكَلَامِ اَنْ لَا يَتَقَدَّمَ ٱلْكَلَامَ تَقَدُّمًا وَلَا يَتَّبِعَ ذُنَابَاهُ تَتَبُّعًا وَلَا يَحْمِلَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَمْلًا فَإِنَّهُ إِنْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامَ لَمْ تَتْبَعْهُ حَقِيقَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَاَعْجَفُهُ وَٱلشَّارِدُ مِنْهُ. وَإِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتْهُ سَوَابِقُهُ وَلَوَاحِقُهُ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ جِيَادُهُ وَغُرَرُهُ . وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسَانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ اَوْسَاقُهُ وَاَعْبَاؤُهُ وَدَخَلَتْ مَسَاوِيهِ فِي مَحَاسِنِهِ وَلٰكِنَّهُ يَجْرِي مَعَهُ

فلا تند عنه نادة مُعجبة سهماء إلا كبحها ولا تتخلف عنه مثقلة هزيلة إلا ارهقها فطورًا تفرّقه ليختار احسنه وطورًا تجمعه لتقرب عليك خطوة الفكر ويتناول اللفظ من تحت لسانه ولا يسلّط الملل على قلبه. والاكثار على تفكره فيأخذ عفوه ولا يستغزر درّه ولا يكره آبيًا ولا يدفع آتيًا . وقال بشر بن المعتمر : خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها لك . فإنّ تلك الساعة اكرم جوهرًا واشرف حسنًا واحسن في الاسماع واحلى في الصدور واسلم من فاحش الخطإ واجلب لكل عين وغرة من لفظ كريم ومعنى بديع . واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة . ومهما اخطاك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدًا او خفيفًا على اللسان سهلًا وكما خرج من ينبوعه ونجم عن معدنه . وإيّاك والتوعّر فإنّ التوعّر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك . ومن اراد معنى كريمًا فليلتمس لفظًا كريمًا فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما ان يصونهما عمّا يدنّسهما ويفسدهما ويهجنهما فيصير بهما الى حدّ يكون فيه اسوأ حالًا منك قبل ان تلتمس البلاغة وترتهن نفسك في ملابسها . فكن في ثلاث منازل . فاول الثلاث : ان يكون لفظك شريفًا عذبًا وفخمًا سهلًا ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا . فإن كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند اول خاطر وتجد اللفظة لم تقع موقعها

وَلَمْ تَصِلْ اِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ ٱلْاَمَاكِنِ وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذٰلِكَ اَحَدٌ . وَاِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَاِنِ ٱبْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ ٱلْقَوْلِ وَتَعَاطِي ٱلصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعَصَّى عَلَيْكَ بَعْدَ اِجَالَةِ ٱلْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَاَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَاِنَّكَ لَا تَعْدَمُ ٱلْاِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ . وَاِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيتَ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّانِيَةُ . فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ ٱلْخَاطِرِ وَطُولِ ٱلْاِمْهَالِ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ . اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَاِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا اِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَٱلشَّيْءُ لَا يَحِنُّ اِلَّا اِلَى مَا شَاكَلَهُ وَاِنْ كَانَتِ ٱلْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَاِنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ ٱلْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ ٱلْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّمًا أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ ٱلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمُجَلِّيًا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَوْمَأَ كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِابْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِانْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَالَى جَنْبِ اُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرَ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْادَبِ: انَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ. وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ اذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِالْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِاحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ ٱلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِانِّي لَمْ اقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ الَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ الَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حقَائِقِهَا وَاحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلِّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي الإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ الجَاحِظُ : إِنَّ المَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ اللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ الطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ الاِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ الاخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ التَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي القَلْبِ صَنِيعَ الغَيْثِ فِي التُّرْبَةِ الكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ الكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ الشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ الصِّفَةِ كَسَاهَا اللهُ مِنَ التَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ التَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ الجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ الجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ النَّظَرِ فِي الكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَالشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَاطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ الرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ التَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ الأَسْمَاعُ عَلَى الطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ الكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِالمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّلْمَاء بِطَلَائِعِ ٱلاضْوَاءِ . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنْقَسِمُ ٱلْفِكْرُ وَيَشْتَغِلُ ٱلْقَلْبُ وَوَسَطُ ٱللَّيْلِ خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذَا خَصَّ ابُو تَمَّام تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى عَادِلًا عَنِ ٱلطَّرَفَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ٱلْمَذْكُورَةِ. وَحَكَتِ ٱلثِّقَاتُ عَنْ ابِي عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي ارُومُ ٱلشِّعْرَ وَكُنْتُ ارْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ اكُنْ وَقَفْتُ لَهُ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذٍ وَوُجُوهِ ٱقْتِضَابٍ حَتَّى قَصَدْتُ ابَا تَمَّامٍ وَٱنْقَطَعْتُ إِلَيْهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ اوَّلُ مَا قَالَ لِي: يَا ابَا عِبَادَةَ تَخَيَّرِ ٱلْاوْقَاتَ وَانْتَ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ ٱلْغُمُومِ . وَٱعْلَمْ انَّ ٱلْعَادَةَ فِي ٱلْاوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ ٱلْانْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ اوْ حِفْظَهُ انْ يَخْتَارَ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلنَّفْسَ تَكُونُ قَدْ اخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ. وَصَفَا مِنْ اكْثَرِ ٱلْابْخِرَةِ وَٱلْادْخِنَةِ جِسْمُ ٱلْهَوَاءِ . وَسَكَنَتِ ٱلْغَمَائِمُ . وَرَقَّتِ ٱلنَّسَائِمُ . وَتَغَنَّتِ ٱلْحَمَائِمُ. وَإِذَا شَرَعْتَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلْغِنَاءَ مِضْمَارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيهِ . وَٱجْتَهِدْ فِي إِيضَاحِ مَعَانِيهِ . فَإِنْ ارَدْتَّ ذِكْرَ ٱلْاحْبَابِ فَٱجْعَلِ ٱللَّفْظَ رَقِيقًا وَٱلْمَعْنَى رَشِيقًا وَاكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ ٱلْكَآبَةِ . وَقَلَقِ ٱلْاشْوَاقِ . وَلَوْعَةِ ٱلْفِرَاقِ وَٱلتَّعَلُّلِ بِٱسْتِنْشَاقِ ٱلنَّسَائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلْحَمَائِمِ . وَٱلْبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالِعَةِ . وَٱلتَّبَرُّمِ مِنَ ٱلْعُذَّالِ . وَٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْاطْلَالِ . وَإِذَا اخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَاشْهَرْ مَنَاقِبَهُ وَاظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَارْهِبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَٱرْغَبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحْذَرِ ٱلْمَجْهُولَ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَإِيَّاكَ انْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلْعِبَارَةِ وَٱلْالْفَاظِ

ٱلْوَحشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نَزَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعْرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ: (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي اَجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ. فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا. وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ. فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا. كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ: اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ: تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي. فَقَالَ: يَا عَمِّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ. فَقَالَ: يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا. ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ:

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي ٱلْفَقِيهِ : إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ : أَلَا تَسْأَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : إِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ إِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ   لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أَخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ   وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا . وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ عَمْوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب . فقال : يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت (يعني كلاماً وصواباً) . فقال : يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك . وأنشدت لأبي الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام . فقال : أفتسمعون صواباً أو خطأ . قالوا : لا بل صواباً . قال : فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذاك الفاضل هو الهذر . وصدق أبو عثمان لأن الإكثار منه وإن كان صواباً يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن إعجاب به لولاه قصر عنه . ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء : من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . قال جعفر بن يحيى : إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً وإن

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِباً كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: إِذَا تَمَّ ٱلعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ: مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ: فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جَلْوَتَهُ ... حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ: مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِي بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلفَاظِهَا غَايَةٌ. وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ انْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ: لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ. فَقَوْلُهُ: (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ. فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُوِّلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ. وَقَالُوا: لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ. وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ: ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ. قَالَ ٱلعَرْجِيُّ:

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
ٱرْجِعْ إِلَى خُلْقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ:

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وقال آخر :

كلُّ امرئٍ راجع يوماً لشيمته   وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

ومثال التكلّف قول بعضهم في دعائه : اللّهمّ ربّنا وإلهنا من أراد بنا سوءاً فأحط ذلك السوء به وأرسخه فيه كرسوخ السجّيل في أصحاب الفيل. وانصرنا على كلّ باغٍ وحسودٍ كما انتصرت لناقة ثمود. ثمّ قال : (بريئاً من سوء الصنعة) فسوء الصنعة يتصرّف على وجوه منها : سوء التقسيم وفساد التفسير وقبح الاستعارة والتطبيق وفساد النسج والسبك . فإذا أخلّ الكاتب بذلك فاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته فعفّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله . لأنّه إذا لم يفرق بين كلام جيّد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادرٍ وآخر باردٍ بان جهله وظهر نقصه. وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشيّ العكر فجعل نفسه مهزاة للجاهل وعبرة للعاقل . وإذا أراد أيضاً تصنيف كلامٍ منثورٍ أو تأليف شعرٍ منظومٍ وتخطّى حسن الصنعة ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه فأخذ الرديء المرذول وترك الجيّد المقبول فدلّ على قصور فهمه وتأخّر معرفته وعلمه . وقد قيل : اختيار الرجل قطعة من علمه . وما أكثر ما وقع من علماء العربيّة في هذه الرذيلة .

وقوله : (بريئاً من التعقيد) فالتعقيد والإغلاق سواء وهو استعمال الوحشيّ وشدّة تعليق الكلام بعضه ببعضٍ حتّى يستبهم المعنى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ شَحْذٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللّٰهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِئَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيَفْهَمَهُ ٱلسَّامِعُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَغنِي فَتًى لَمْ تَذُرَّ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً ... يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا ضَرَّ أَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ: (يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ ٱلشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ لَيْلًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ ٱلْعِبَارَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ بِأَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا ... لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا ٱلْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ أَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ ٱلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا ٱلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ أَنَّ ٱلْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ ٱلْمِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَأَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ إِلَّا أَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي أَهْلُ ٱلصَّنْعَةِ هٰذَا ٱلْجِنْسَ ٱعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱلثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

إِنْ لَمْ يَفْهَمِ ٱلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ ٱلْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ ٱلْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ

ٱلْمُتَرجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصَّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَليلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرًا لِلَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِاسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ. (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ أَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَٱلصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا أَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى ٱلْاِنسانِ مَا مُنِعَا ... سُنِعَتْ شَيْئًا فَاَكْثَرَتْ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَاءً مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ اِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَاَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ اِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ . فَاِنَّ اَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ اَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرٍ سَلِيمٍ وَاِخْفَاءٍ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

اَلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلرَّمْزُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ لِيَكُونَ اَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَاَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِالرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورِسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ اِنَّهُ قَالَ : ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلْبَذَى وَاَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلْبَذَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْاَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِاللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْاَفْهَامِ كَالْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْاَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ . وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا اِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِاللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ . فَاَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ اِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي اِلَيْهَا . عَنِ ٱلْاِسْتِدْعَاءِ اِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْابْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهٰذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَايُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اجْسَامِهِمْ الَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَايُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . اُنْظُرْ الَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفْ رَجُلًا   ٱبْنَ امِّ ٱبْنِ ابِي اُخْتِ ابِيهِ
مَعَهُ اُمُّ بَنِي اوْلَادِهِ   وَابَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ انَّهُ ارَادَ مَيْتًا خَلَّفَ ابًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي افَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ انَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاخَّرَ مَا قَدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ ٱلْاوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ انْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَٱصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمٍ مَا يَكُونُ اِنْفَاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ اَقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ ٱلْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا　　وَاَسْبَابُ ٱلْبَلَاءِ مِنَ ٱلْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْاَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا ٱلِاسْتِيفَاءُ وَٱلْكَشْفُ اِلَى ٱلْاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا ٱلْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا ٱلْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا ٱلْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَاَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِٱسْتِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ ٱلِارْتِيَاضُ بِهِ وَبِٱلِارْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا ٱسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَأْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ ٱلْمُقَدَّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَٱلْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ ٱلْمُقَدَّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلنَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ ٱلْمَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

إِلَّا بِمُقَدِّمَتِهِ وَٱلِاشْتِغَالُ بِهِ قَبْلَ ٱلْمُقَدِّمَةِ عَنَاءٌ . وَإِتْعَابُ ٱلْفِكْرِ فِي ٱسْتِنْبَاطِهِ قَبْلَ قَاعِدَتِهِ أَذًى . فَهٰذَا يُوضِحُ تَعْلِيلَ مَا فِي ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِهَا . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَمِعِ فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا مِنْ ذَاتِهِ . وَٱلثَّانِي مِنْ طَارٍ عَلَيْهِ . (فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ ذَاتِهِ) فَيَتَنَوَّعُ نَوْعَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ . فَأَمَّا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلْبَلَادَةُ وَقِلَّةُ ٱلْفِطْنَةِ وَهُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِذَا فَقَدَ ٱلْعَالِمُ ٱلذِّهْنَ قَلَّ عَلَى ٱلْأَضْدَادِ ٱحْتِجَاجُهُ . وَكَثُرَ إِلَى ٱلْكُتُبِ ٱحْتِيَاجُهُ . وَلَيْسَ لِمَنْ بُلِيَ بِهِ إِلَّا ٱلصَّبْرُ وَٱلْإِقْلَالُ . لِأَنَّهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ أَقْدَرُ . وَبِٱلصَّبْرِ أَحْرَى أَنْ يَنَالَ وَيَظْفَرَ . وَأَمَّا ٱلْمَانِعُ مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلنِّسْيَانُ ٱلْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ ٱلتَّقْصِيرِ وَإِهْمَالِ ٱلتَّوَانِي فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ ٱلدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِإِدَامَةِ ٱلنَّظَرِ . فَقَدْ قِيلَ : لَا يُدْرِكُ ٱلْعِلْمَ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرْسَهُ وَيَكُدُّ نَفْسَهُ . وَكَثْرَةُ ٱلدَّرْسِ كَدُودٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَرَى ٱلْعِلْمَ مَغْنَمًا وَٱلْجَهَالَةَ مَغْرَمًا . فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ ٱلدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ ٱلْعِلْمِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَعَرَّةَ ٱلْجَهْلِ . فَإِنَّ نَيْلَ ٱلْعَظِيمِ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ . وَعَلَى قَدْرِ ٱلرَّغْبَةِ تَكُونُ ٱلْمَطَالِبُ وَبِحَسَبِ ٱلرَّاحَةِ يَكُونُ ٱلتَّعَبُ . وَقَدْ قِيلَ : طَلَبُ ٱلرَّاحَةِ قِلَّةُ ٱلِاسْتِرَاحَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَكْمَلُ ٱلرَّاحَةِ مَا كَانَتْ عَنْ كَدِّ ٱلتَّعَبِ وَأَعَزُّ ٱلْعِلْمِ مَا كَانَ عَنْ ذُلِّ ٱلطَّلَبِ . . .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ

فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا … دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ … إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فتَآلَفُوهَا بِالْاقْتِصَادِ فِي التَّعلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقدِيمِ لِتَحسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهذَا تَعلِيلُ مَا فِي الْمُستَمِعِ مِنَ الْأَسبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

إِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ إِذَا رَكِبَتْ إِحدَاهُمَا الأُخرَى. فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي أَلفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ. وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: التَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا أَعرِفُ ذٰلِكَ إِلَّا فَاحِشَ الِاسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ إِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ التَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

اذا ركبت احداهما الاخرى . وهذا المثال الذي مثّل به قدامة لا تراكب في الفاظه ولا في معانيه . واما غير قدامة فانه خالفه فيما ذهب اليه الا انه لم يقسم المعاظلة الى لفظية ومعنوية ولكنه ضرب لها مثلا . كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا ابو امه حي ابوه يقاربه

وهذا من القسم المعنوي لا من القسم اللفظي . الا ترى الى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه لان الاصل في معناه : وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا ابو امه ابوه . واذ حققت القول في بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فاقول : ان المعاظلة معاظلتان لفظية ومعنوية (فالمعنوية) ان يقدم ما الاولى به التأخير وهو من عيوب الكلام لان المعنى مختل بذلك ومضطرب وذلك كتقديم الصفة او ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك . كقول بعضهم :

فقد والشك بيّن لي عناء بوشك فراقهم صرد يصيح

فانه قدم قوله (بوشك فراقهم) . وهو معمول يصيح ويصيح صفة لصرد على صرد وذلك قبيح . الا ترى انه لا يجوز ان يقال : هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم . وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها . ومن هذا النحو

قَوْلُ ٱلآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَانَ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلِٱسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

ا للفظي من المعاظلة) فاني تاملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقتها نفسها فوجدتها تنقسم الى خمسة اقسام : (الاول) منها يختص بادوات الكلام . من والى وعن وعلى واشباهها . فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع اخواته . ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك . فمما جاء منه قول ابي تمام :

الى خالد راحت بنا ارحبية   مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله : (من عن كراكرها) من الكلام المتعاظل الذي نثقل النطق به على انه قد وردت هاتان اللفظتان وهما : من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل : من عن يمين الطريق. والسبب في ذلك انهما وردتا في بيت ابي تمام مضافتين الى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله :

ولقد اراني للرماح دريئة   من عن يميني مرة وامامي

والاصل في ذلك راجع الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان او ما يجري مجراهما مع الفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري . واذا سبكتا مع الفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت ابي تمام . ومن هذا القسم قول ابي تمام ايضا :

كانه لاجتماع الروح فيه له   في كل جارحة من جسمه روح

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ: (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ....

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ أَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ. وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ:

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ: (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ: فَإِنَّهُ أَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا. وَأَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ أَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ. وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيءِ مِنَ ٱلْكَلَامِ.. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ. وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ ادْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي: (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ. وَفِي: (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِّي. وَكَذٰلِكَ قَالُوا: ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ. وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ. وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ أَبْدَلُوا أَحَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا: أَمْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ أَمْلَلْتُ. فَأَبْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ. وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ أَلْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ. وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ. فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي أَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ:

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ: (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا. وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ. فَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَأَنَّهُ قَالَ: (ٱفْعَلِ ٱفْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ. وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَٱمْرِ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَٱبْرِزْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لَبَدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَنْحَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وافٍ لَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَانَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ. لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلفرقَ بينهُ وبينَ ٱلمعاظلةِ انَّ ٱلمعاظلةَ هِيَ ٱلتراكُبُ وٱلتداخلُ إمَّا فِي ٱلألفاظ أوْ فِي ٱلمعاني على ما اشرتُ إليهِ . وهٰذا ٱلنوعُ لا تراكُبَ فيهِ وإنَّما هُوَ إيرادُ ٱلفاظٍ غيرِ لائقةٍ بموضعها ٱلذي ترِدُ فيهِ . وهُوَ ينقسمُ قسمينِ : احدُهُما يوجدُ فِي ٱللفظةِ ٱلواحدةِ وٱلآخرُ فِي ٱلألفاظِ ٱلمتعدّدةِ . (فأمَّا ٱلَّذي يوجدُ فِي ٱللفظةِ ٱلواحدةِ) فإنَّهُ إذا وردَ فِي ٱلكلامِ أمكنَ تبديلُهُ بغيرهِ ممَّا هُوَ فِي معناهُ سواءٌ كانَ ذٰلكَ ٱلكلامُ نثرًا أوْ نظمًا . وأمَّا ٱلَّذي يوجدُ فِي ٱلألفاظِ ٱلمتعدّدةِ فإنَّهُ لا يمكنُ تبديلُهُ بغيرهِ فِي ٱلشعرِ بل يمكنُ ذٰلكَ فِي ٱلنثرِ خاصَّةً لأنَّهُ يعسُرُ فِي ٱلشعرِ مِنْ اجلِ ٱلوزنِ . فممَّا جاءَ مِنَ ٱلقسمِ ٱلأوَّلِ قولُ أبي ٱلطيّبِ ٱلمتنبّي :

فَلا يُبرَمُ ٱلأمرُ ٱلَّذي هُوَ حالِلٌ ... وَلا يُحلَلُ ٱلأمرُ ٱلَّذي هُوَ يُبرِمُ

فلفظةُ حالِلٌ نافرةٌ عن موضعها وكانت لهُ مندوحةٌ عنها لأنَّهُ لو ٱستعملَ عوضًا عنها لفظةَ (ناقِضٌ) لجاءتِ ٱللفظةُ قارَّةً فِي مكانها غيرَ قلقةٍ ولا نافرةٍ . وبلغني عن أبي ٱلعلاءِ : أنَّهُ كانَ يتعصَّبُ لأبي ٱلطيّبِ حتَّى أنَّهُ كانَ يُسمّيهِ ٱلشاعرَ ويُسمّي غيرَهُ مِنَ ٱلشعراءِ بٱسمهِ وكانَ يقولُ : ليسَ فِي شعرهِ لفظةٌ يُمكنُ أنْ يقومَ عنها ما هُوَ فِي معناها فيجيءَ حسنًا مثلَها . فيا ليتَ شِعري أما وقفَ على هٰذا ٱلبيتِ ٱلمشارِ إليهِ لكنَّ ٱلهوى كما يُقالُ أعمى . وكانَ أبو ٱلعلاءِ أعمى ٱلعينِ خلقةً وأعماها عصبيَّةً فٱجتمعَ لهُ ٱلعمى مِنْ جهتينِ . وهٰذهِ ٱللفظةُ ٱلَّتي هِيَ (حالِلٌ) وما يجري مجراها قبيحةُ ٱلاستعمالِ وهِيَ فكٌّ

ٱلإِدْغَامِ فِي ٱلفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ   يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَأَمَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِأَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلَةُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ أَقْبَحُ لِأَنَّهُ أَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ   طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱلِٱنْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱلِٱنْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللّٰهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ   وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ. وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَيْضًا أَنْ تُزَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ. كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ: (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ. وَقَوْلُهُ: (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ. تَقْدِيرُهُ: (ٱلزَّائِرِينَ أَرْضَهُمْ أَوْ دَارَهُمْ أَوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا. وَإِذَا حَذَفْتَهَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ. وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيْضًا:

لَاخَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ

الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوَّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربهِ)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفظِ وَالْخطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفظٍ . فَاَمَّا الْخطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفهُومَانِ عِندَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخبَرَكَ بِهِ . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِعْ . وَاِذَا سَاَلتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : الرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ مَعْنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلٍّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِلْيَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تُفَضِّلُهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يجب نوقيرهم في الكتب بشرف العلم وعلو درجة اهله .
(والطبقة الرابعة) لاهل القدر والجلالة والحلاوة والطلاوة والظرف والادب فانهم يضطرونك بجدة اذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم وادبهم وتصفحهم الى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم واستغنينا عن الترتيب للسوقة والعوام والتجار باستغنائهم بمهاناتهم من هذه الآلات واشتغالهم بمهاناتهم عن هذه الادوات . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك ان ترعاها في مراسلتك اياهم في كتبك فتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه . فانك متى اهملت ذلك واضعته لم آمن عليك ان تعدل بهم عن كلامك في غير مسلكه فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا لائقا بمن كاتبته وملمسا بمن راسلته . فان الباسك المعنى وان صح وصرف لفظا مختلفا على قدر المكتوب اليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم بحق المكتوب اليه ونقص بما يجب له كما ان في اتباع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت به السنتهم قطعا لعذرهم وخروجا من حقوقهم وبلوغا الى غاية مرادهم واسقاطا لحجة ادبهم .
فمن الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منها في كتب السادات والملوك والامراء على اتفاق المعاني مثل : ابقاك الله طويلا وعمرك مليا . وان كنا نعلم ان لا فرق بين قولهم : اطال الله بقاءك . وبين قولهم : ابقاك الله طويلا . ولكنهم جعلوا هذا

أرجح وزنًا وأنبه قدرًا في المخاطبة كما أنهم جعلوا: أكرمك الله وأبقاك. أحسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداه من الخير كما يحتمل أن يكون فداه من الشر. على أن كتّاب العسكر وعوامّهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير. ولذلك قال محمودٌ الورّاق:

كلُّ من حلَّ سرَّ من را من النا س ومن قد يداخل الأملاكا
لو رأى الكلب مائلًا بطريق قال للكلب يا جعلتُ فداكا

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلّا في الابن والخادم المنقطع إليك. وأمّا في كتب الإخوان فغيرُ جائزٍ بل مذمومٌ مرغوبٌ عنهُ... ولكلّ مكتوبٍ إليه قدرٌ ووزنٌ ينبغي للكاتب أن لا يجاوزهُ عنهُ ولا يقصّر به دونهُ. وقد رأيتُهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوامّ في قوله:

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضُهم مذقُ الحديث يقولُ ما لا يفعلُ

وهذا معنًى صحيحٌ في المدح ولكنّهم أجلّوا قدر الملوك أن يُمدحُ بما تُمدحُ به العوامُّ لأنَّ صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجبٌ على العامّة. والملوك لا يُمدحون بالفرائض الواجبة. إنّما يحسنُ مدحُهم بالنوافل لأنَّ المادح لو قال لبعض الملوك: إنّك لا تخونُ ما استودعت وإنّك لتصدقُ في وعدك وتفي

بعهدِكَ . فكأنَّهُ قد أثنى بما يجبُ ولو قصد بثنائِهِ إلى مقصدِهِ كانَ أشبهَ بالملوكِ . ونحنُ نعلمُ أنَّ كلَّ أميرٍ يتولى مِن أميرِ المؤمنينَ شيئاً فهو أميرُ المؤمنينَ غيرَ أنهم لم يُطلقوا هذِهِ اللفظةَ إلَّا في الخلفاءِ خاصَّةً . ونحنُ نعلمُ أنَّ الكيِّسَ هو العقلُ . ولكنْ إنْ وصفتَ رجلًا فقلتَ : إنَّهُ لعاقِلٌ . كنتَ مدحتَهُ عِندَ النَّاسِ . وإنْ قلتَ : إنَّهُ لكيِّسٌ كنتَ قد قصَّرتَ بِهِ عَنْ وصفِهِ وصغَّرتَ مِنْ قدرِهِ . إلَّا عِندَ أهلِ العِلمِ باللُّغةِ لأنَّ العامَّةَ لا تلتفتُ إلى معنى الكلمةِ ولكنْ إلى ما جرتْ بِهِ العادةُ مِن استعمالِها في الظَّاهِرِ إذ كانَ استعمالُ العامَّةِ لهذِهِ الكلمةِ معَ الحداثةِ والغرَّةِ وخساسةِ القدرِ وصِغرِ السِّنِّ . . . فامتثلْ هذِهِ المذاهِبَ وأجرِ على هذِهِ القوامِ وتحفَّظْ في صدورِ كتبِكَ وفصولِها وخواتِمِها وضعْ كلَّ معنى في موضِعٍ يليقُ بِهِ وتخيَّرْ لكلِّ لفظةٍ معنًى يشاكِلُها وليكنْ ما تختِمُ بِهِ فصولَكَ في موضِعِ ذِكرِ البلوى بمثلِ : (نسألُ اللهَ دفعَ المحذورِ وصرفَ المكروهِ) وأشباهِ هذا . وفي موضِعِ ذِكرِ المصيبةِ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ . وفي موضعِ ذِكرِ النِّعمةِ : (الحمدُ للهِ خالِصاً والشُّكرُ للهِ واجِباً) . فإنَّ هذِهِ المواضِعَ يجبُ على الكاتِبِ أنْ يتفقَّدَها ويحتفِظَ بها . فإنَّ الكاتِبَ إنَّما يصيرُ كاتِباً بأنْ يضعَ كلَّ معنًى في موضِعِهِ فيعلِّقَ كلَّ لفظةٍ على طبقِها مِنَ المعنى . واعلمْ أنَّهُ لا يجوزُ في الرَّسائِلِ استعمالُ الاقتصارِ والحذفِ ومخاطبةُ الخاصِّ بالعامِّ والعامِّ بالخاصِّ . وكذلكَ ينبغي للكاتِبِ

انْ يَجتَنِبَ اللَّفظَ المُشتَرَكَ وَالمَعنَى المُلتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ ايضاً فِي الرَّسَائِلِ وَالبَلَاغَاتِ المَشهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي الأَشعَارِ المَوزُونَةِ لِانَّ الشَّاعِرَ مُضطَرٌّ وَالشِّعرَ مَقصُودٌ مُقَيَّدٌ بِالوَزنِ وَالقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ اجَازُوا لَهُم صَرفَ مَا لَا يَنصَرِفُ مِنَ الاَسمَاءِ وَحَذفَ مَا لَا يُحذَفُ مِنهَا وَاغتُفِرَ فِيهِ سُوءُ التَّظَلُّمِ وَاجَازُوا فِيهِ التَّقدِيمَ وَالتَّأخِيرَ وَالاِضمَارَ فِي مَوضِعِ الاِظهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيرُ سَائِغٍ فِي الرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي البَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنبَغِي فِي الرَّسَائِلِ انْ يُصَغَّرَ الاَسمُ فِي مَوضِعِ التَّعظِيمِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثلُ قَولِهِم : دُوَيهِيَةٌ تَصغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيلٌ تَصغِيرُ جَذلٍ . وَعُذَيقٌ تَصغِيرُ عِذقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ انَاسٍ سَوفَ تَدخُلُ بَينَهُم دُوَيهِيَةٌ تَصفَرُّ مِنهَا الاَنَامِلُ

وَقَالَ الحُبَابُ بنُ المُنذِرِ يَومَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : انَا عُذَيقُهَا المُرَجَّبُ وَجُذَيلُهَا المُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرحَةُ ابُو عُبَيدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي الكَلَامِ ايضاً مِثلُ قَولِهِم : كَلَّمتُ إِيَّاكَ وَاعنِي إِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي الشِّعرِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَاجمِلْ وَاحسِنْ فِي اَسِيرِكَ إِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأسِرْ كَإِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ الالفَاظِ ارجَحَهَا لَفظاً وَاجزَلَهَا وَاشرَفَهَا جَوهَرًا وَاكرَمَهَا حَسَباً وَاليَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاشكَلَهَا فِي مَوضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلتَ صَنعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ اللَّفظَةَ قَبلَ انْ تُخرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ .وَعَايِرِ الكَلِمَةَ بِمِعيَارٍ إِذَا سَنَحَتْ. فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوضِعٌ يَكُونُ مَخرَجُ الكَلَامِ إِذَا كَتَبتَ : انَا فَاعِلٌ. احسَنَ مِنْ انْ

تكتبَ : أنَا افعلُ . وَمَوضِعٌ آخرُ يكُونُ فِيهِ (اَستَفعَلتُ) أحلى مِنْ (فعلتُ) فَادِرِ الكَلَامَ عَلَى اعكَانِهِ وَقَلِبْهُ عَلَى جَميعِ وُجُوهِهِ فَايُّ لَفظَةٍ رَايتهَا فِي المَكَانِ الَّذِي نَدبتهَا اِلَيهِ فَانزعهَا اِلَى المَكَانِ الَّذِي اوردتَّهَا عَلَيهِ وَاوقِعهَا فِيهِ . وَلَا تجعَلِ اللَّفظَةَ قَلِقَةً فِي مَوضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَاِنَّكَ مَتَى فَعَلتَ هجَّنتَ المَوضِعَ الَّذِي حَاوَلتَ تحسِينَهُ وَافسَدتَّ المَكَانَ الَّذِي اَردتَّ اِصلَاحَهُ فَاِنَّ وَضعَ الالفاظِ فِي غَيرِ امَاكِنِهَا وَقَصدَكَ بِهَا اِلَى غَيرِ مُصَابِهَا اِنَّمَا هُوَ كَتَرقِيعِ الثَّوبِ الَّذِي لَمْ يُشَابِهْهُ رِقَاعُهُ وَلَمْ تتقَارَبْ اجزاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الجِدَّةِ وَتَغيَّرَ حُسنُهُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

اِنَّ الجَدِيدَ اِذَا مَا زِيدَ فِي خلَقٍ … يَبِينُ لِلنَّاسِ اَنَّ الثَّوبَ مَرقُوعُ

كَذَلِكَ كُلَّمَا احلَولَى الكَلَامُ وَعَذُبَ وَرَاقَ وَسهلَت مخَارِجُهُ كَانَ اسهَلَ وَارجَى فِي الاسماعِ وَاشَدَّ اتِّصَالًا بِالقُلُوبِ وَاخَفَّ عَلَى الافوَاهِ لَا سِيَّمَا اِنْ كَانَ المَعنَى البَدِيعُ مُترجَمًا بِلَفظٍ مُونِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايرًا بِكَلَامٍ عَذبٍ لَمْ يَسِمهُ التَّكلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفسِدهُ التَّعقِيدُ بِاستهلَاكِهِ . . . وَقَد رَايتُهُمْ شَبَّهُوا المَعنَى الخَفِيَّ بِالرُّوحِ الخَفِيِّ . وَاللَّفظَ الظَّاهِرَ بِالجُثمَانِ الظَّاهِرِ . وَاِذَا لَمْ يَنهَضْ بِالمَعنَى الشَّرِيفِ الجَزلِ لَفظٌ شَرِيفٌ جَزلٌ لَمْ تَكُنِ العِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا النِّظَامُ مُتَّسِقًا . وَتَضَاؤُلُ المَعنَى الحَسَنِ تحتَ اللَّفظِ القَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ الحَسنَاءِ فِي الاطمَارِ الرَّثَّةِ . وَاِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى المَعنَى اربَعَةُ اصنَافٍ : لَفظٌ وَاِشَارَةٌ وَعَقدٌ وَخَطٌّ . وَقَد ذَكَرَ لَهُ اَرِسطَاطَالِيسُ صِنفًا خَامِسًا فِي كِتَابِ

ٱلْمنطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنَّصبَةَ . وَٱلنَّصبَةُ ٱلحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلْٱسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ :هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِي

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

المعاني والبيان فعلم المعاني وعلم البيان هما جزءا البلاغة وبهما كمال الافادة والمطابقة لمقتضى الحال. فالبلاغة على هذا هي اصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته. ثم اعلم انهم اذا قالوا الكلام المطبوع فانهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من افادة مدلوله المقصود منه لانه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به ان يفيد سامعه ما في ضميره افادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالاصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الافادة وكانها تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الاسجاع والموازنة بين جميل الكلام وتقسيمه بالاقسام المختلفة الاحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه والمطابقة بين المتضادات ليقع التجانس بين الالفاظ والمعاني فيحصل للكلام رونق ولذة في الاسماع وحلاوة وجمال كلها زائدة على الافادة. وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل: والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى. ومثل: فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى الى آخر التقسيم. وكذا: فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا الى آخره. وكذا: وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا. وامثاله كثير. وذلك بعد كمال الافادة في اصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهلية منه لكن عفوا من غير قصد ولا تعمد. ويقال

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَامَّا ٱلْاِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَاَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَاوَّلُ مَنْ اَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ اَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ اِنَّ اوَّلَ مَنْ ذَهَبَ اِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اَتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعِتَابِيُّ وَمَنْصُورُ ٱلنَّمِرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَاَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ اَجْمَعَ

فَتَامَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي اِحْكَامِ تَالِيفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْاَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَامَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنِ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَاخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ اَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ اَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي اَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى انَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْاِفَادَةِ وَاِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَامَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ اَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْاَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَاُدَبَاءِ ٱلْاَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا اَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَامَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوءِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلإِخْوَانِيَّاتُ وَٱلعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلاِكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْأَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْأَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْإِعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلْاِزْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَانِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَاَمْرَانِي وَمَوْزُورَاتٍ . مَعَ اَنَّ فِيهِ اَرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْإِعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالْاَسْجَاعُ اَرْبَعَةُ اَنْوَاعٍ : اَلتَّرْصِيعُ وَاَلْمُتَوَازِي وَاَلْمُطَرَّفُ وَاَلْمُتَاوَزِنُ . اَمَّا (اَلتَّرْصِيعُ) فَهُوَ اَنْ تَكُونَ اَلْاَلْفَاظُ مُسْتَوِيَةَ اَلْاَوْزَانِ مُتَّفِقَةَ اَلْاَعْجَازِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ اِلَيْنَا اِيَابَهُمْ . ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . وَقَوْلِهِ : اِنَّ اَلْاَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَاِنَّ اَلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَقْبَلْ تَوْبَتِي وَاَغْسِلْ حَوْبَتِي . وَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَفْتَخِرُ بِالْهِمَمِ اَلْعَالِيَةِ . لَا بِالرِّمَمِ اَلْبَالِيَةِ . وَقَوْلِهِمْ : حَتَّى عَادَ تَعْرِيضُكَ تَصْرِيحًا . وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْخَنْسَاءِ :

حَامِي اَلْحَقِيقَةِ مَحْمُودِ اَلْخَلِيقَةِ   مَهْدِيِّ اَلطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قَاصِيَةٍ جَزَّازِ نَاصِيَةٍ   عَقَّادِ اَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارِ

وَكَقَوْلِ اَبِي فِرَاسٍ :

وَاَفْعَالُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ   وَاَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَقَوْلِ اَلْاَبِيوَرْدِيِّ :

يَرُوحُ اِلَيْهِمْ عَازِبُ اَلْحَمْدِ وَافِيَا   وَيَغْدُو عَلَيْهِمْ طَالِبَ اَلرِّفْدِ عَافِيَا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ اَلتَّجْنِيسِ كَقَوْلِهِمْ : اِذَا قَلَّتِ اَلْاَنْصَارُ كَلَّتِ اَلْاَبْصَارُ . وَمَا وَرَاءَ اَلْخَلْقِ اَلدَّمِيمِ اِلَّا اَلْخُلُقُ اَلذَّمِيمُ . وَمِنَ اَلنَّظْمِ قَوْلُ اَلْمُطَرِّزِيِّ :

وَدَرُّ جَلَالِهِ اَبَدًا ثَمِينٌ   وَدَرُّ نَوَالِهِ اَبَدًا غَزِيرُ

(وَاَلْمُتَوَازِي) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي اَلْكَلِمَتَيْنِ اَلْاَخِيرَتَيْنِ مِنَ اَلْقَرِينَتَيْنِ وَاَلْوَزْنِ مَعَ اِتِّفَاقِ اَلْحَرْفِ اَلْآخِرِ مِنْهُمَا كَقَوْلِهِ : فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَاَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَقَوْلِهِ : اَللّٰهُمَّ اَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا .

وَاعطِ مُمسِكًا تلفًا.وقَولِ ٱلحَرِيرِيِّ : ٱلجَانِي حُكمُ دَهرٍ قَاسِطٍ. إِلَى ان اَنتَجِعَ ارضَ وَاسِطٍ . وقَولِهِ : وَاوْدَى ٱلنَّاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلمُطَرَّفُ)وَهُوَ انْ يُرَاعَى ٱلحَرفُ ٱلأَخِيرُ فِي كِلتَا قَرِينَتَيهِ مِنْ غَيرِ مُرَاعَاةِ ٱلوَزنِ . كَقَولِهِ : مَالَكُمْ لَاتَرجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا.وَقَدْ خَلَقَكُمْ اطوارًا . وَقَولِهِمْ :خِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ.وَمُخَيَّمُ ٱلآمَالِ . (وَٱلمُتَوَازِنُ) وَهُوَ انْ يُرَاعَى فِي ٱلكَلِمَتَينِ ٱلأَخِيرَتَينِ مِنَ ٱلقَرِينَتَينِ ٱلوَزنُ مَعَ ٱختِلَافِ ٱلحَرفِ ٱلآخِرِ مِنهُمَا . كَقَولِهِ : وَنَمَارِقُ مَصفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ . وَقَولِهِمْ : اَصبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ ٱلمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلمِرَاسِ . فَإِنْ رَاعَى ٱلوَزنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلقَرَائِنِ او اَكثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلكَلِمَةَ مِنهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزنًا كَانَ احسَنَ . كَقَولِهِ : وَآتَينَاهُمَا ٱلكِتَابَ ٱلمُستَبِينَ . وَهَدَينَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلمُستَقِيمَ . وَقَولِ ٱلحَرِيرِيِّ :اَسوَدَّ يَومِي ٱلأَبيَضُ وَٱبيَضَّ يَومِي ٱلأَسوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعرِ ٱلمُوَازَنَةَ . كَقَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

فَقِفْ مُسعِدًا فِيهِنَّ إِنْ كُنتَ عَاذِرًا
وَسِرْ مُبعِدًا عَنهُنَّ إِنْ كُنتَ عَاذِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرطُ ٱلحُسنِ فِي هٰذَا ٱلمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ اَسمٌ جَامِعٌ لِلمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلمُلَاءَمَةُ تَألِيفُ ٱلأَلفَاظِ ٱلمُوَافِقَةِ بَعضُهَا لِبَعضٍ فِي ضَربِ ٱلِاعتِدَالِ . كَقَولِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلمَرءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوئِهِ ... يَعُودُ رَمَادًا بَعدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْاَهلُونَ اِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُـدَّ يَوْمًا اَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَـةِ وَهُوَ اَنْ يَضُمَّ اِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَاَنْ يَجْمَعَ ٱلْاُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ اَيضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْاَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَاَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ اَيضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِاَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ اَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةَ تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْـكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ اَوْلَادُ عِلَّةٍ يَكُـدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ: ٱلْاَوَّلُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِاعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلفَصْلَ ٱلأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلفِقْرَتَيْنِ ٱلأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلجَوَازَ يَعُمُّ ٱلجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱليَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱليَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنهَا خَمسَ لَفظَاتٍ اَوْ ستا لَمَّا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيبًا

اَلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصلُ ٱلْآخَرُ اَقْصَرَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : اَنَّ ٱلسَّجعَ يَكُونُ قَدِ ٱسْتَوفَى اَمَدَهُ مِنَ ٱلْفَصلِ ٱلْاَوَّلِ بِحُكمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلْاَوَّلِ فَيَكُونُ كَٱلشَّيْءِ ٱلْمَبتُورِ فَيَبقَى ٱلْاِنْسَانُ عِندَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلِانْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَينَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا اَقْسَامَ ٱلسَّجعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ اَنَّ ٱلسَّجعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجعَتَينِ مُؤَلَّفَةً مِنْ اَلفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلْاَلفَاظُ كَانَ اَحسَنَ لِقُربِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّربُ اَوْعَرُ ٱلسَّجعِ مَذهَبًا وَاَبعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱسْتِعمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّربُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّهُ اَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجعِ اَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِاَنَّ ٱلْمَعنَى اِذَا صِيغَ بِاَلفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ ٱلسَّجعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلكَ ٱلْاَلفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱسْتِجلَابِهِ . وَاَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلْاَلفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجلَبُ لَهُ ٱلسَّجعُ مِنْ حَيثُ لَيسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَينِ ٱلضَّربَينِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلْاَلفَاظِ . اَمَّا ٱلسَّجعُ ٱلْقَصِيرُ فَاَحسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفظَتَينِ لَفظَتَينِ كَقَولِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصفًا . وَقَولِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنذِرْ . وربَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فطَهِّرْ . وَالرُّجزَ فَاهْجُرْ . وَمِنهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثلاثةِ الفاظٍ واربعةٍ وخمسةٍ وكذلك العشرة . وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل . فمما جاء منه قوله : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا اَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ اَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَاما السجع الطويل فانَّ درجاته تتفاوت في الطول ايضًا فمنه ما يقرب من السجع القصير . وهو ان يكون تأليفه من احدى عشرة الى اثنتي عشرة لفظة . واكثره خمس عشرة لفظة كقوله : وَلَئِنْ اَذَقْنَا الْاِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ اِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ اَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي اِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فالأولى احدى عشرة لفظة . والثانية ثلاث عشرة لفظة . ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله : اِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ اَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْاَمْرِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ اِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَاِذْ يُرِيكُمُوهُمْ اِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي اَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي اَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ اَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَاِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْاُمُورُ . ومن السجع الطويل ايضًا ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط

البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجازُ حذفُ زِيادَاتِ اَلْأَلْفاظِ وهٰذا نوعٌ مِنَ اَلْكَلَام شَرِيفٌ لَا يَتَعلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرْسَانُ اَلْبَلَاغةِ مَنْ سَبقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي اَعلَى درجَاتِهَا بِاَلْقِدحِ اَلْمُعَلَّى. وَذٰلِكَ لِعلُوِّ مَكَانِهِ. وَتعَذُّرِ اِمْكَانِهِ وَالنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلى اَلْمعَانِي لَا اِلَى اَلْأَلْفَاظِ. وَلَسْتُ اَعنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهْمِلَ اَلْأَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوصَافِهَا اَلْحَسَنَةِ بَلْ اَعْنِي انَّ مَدَارَ اَلنَّظَرِ فِي هٰذَا اَلنَّوعِ اِنَّمَا يَخْتَصُّ بِاَلْمَعَانِي. فَرُبَّ لَفظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ. وَرُبَّ لَفظٍ كَثِيرٍ يَدلُّ عَلَى مَعنًى قَلِيلٍ. وَمِثَالُ هٰذَا كَاَلْجَوْهَرَةِ اَلْوَاحِدَةِ بِاَلنِّسبَةِ اِلَى اَلدَّرَاهِمِ. فَمَنْ يَنظُرُ اِلَى طُولِ اَلْأَلفَاظِ يُؤْثِرُ اَلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا. وَمَنْ يَنظُرُ اِلَى شَرَفِ اَلْمَعَانِي يُؤْثِرُ اَلْجَوْهَرَةَ اَلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا. قَالَ اَصْحَابُ اَلْايجَازِ: اَلْايجَازُ قُصُورُ اَلْبَلَاغَةِ عَلَى اَلْحَقِيقَةِ وَمَا تجاوَزَ مِقْدَارَ اَلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ اَلْهَذَرِ وَاَلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعظَمِ اَدوَاءِ اَلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ اَلصِّنَاعَةِ. وَفِي تَفْضِيلِ اَلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ: اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَاَفْعَلُوا. وَقَالَ

بَعْضُهُمْ : اَلزِّيَادَةُ فِي اَلْحَدِّ نُقْصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ اَلْاَمِينُ : عَلَيْكُمْ بِالْاِيجَازِ فَاِنَّ لَهُ اِفْهَامًا وَلِلْاِطَالَةِ اَسْتِبْهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : اَلْقَلِيلُ اَلْكَافِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : اِذَا طَالَ اَلْكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسْبَابُ اَلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ اَلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا اَلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : اَلْاِيجَازُ . قِيلَ : وَمَا اَلْاِيجَازُ . قَالَ : حَذْفُ اَلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ اَلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ اَلشِّعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلْقِلَادَةِ مَا اَحَاطَ بِالْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَسْتُ اَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا صَيَّرَكَ اِلَى اَلْقِصَارِ بَعْدَ اَلطِّوَالِ . قَالَ : لِاَنِّي رَاَيْتُهَا فِي اَلصُّدُورِ اَوْقَعَ وَفِي اَلْمَحَافِلِ اَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ اَلْحُطَيْئَةِ لِاَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ اَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِاَنَّهَا بِالْآذَانِ اَوْلَجُ وَبِالْاَفْوَاهِ اَعْلَقُ . وَقَالَ اَبُو سُفْيَانَ لِاَبْنِ اَلزِّبَعْرِيِّ : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلشِّعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ اَلذُّبْيَانِيِّ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ كَمَا اَطَالَ صَاحِبُكَ اَبْنُ حُجْرٍ . قَالَ : مَنِ اَنْتَحَلَ اَنْتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعْضِ اَلْمُحَدِّثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى اَرْبَعَةٍ وَاَثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِالْقُلُوبِ اَوْقَعُ وَاِلَى اَلْحِفْظِ اَسْرَعُ وَبِالْاَلْسُنِ اَعْلَقُ وَلِلْمَعَانِي اَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا اَبْلَغُ وَاَوْجَزُ . وَقِيلَ لِاَبْنِ حَازِمٍ : اَلَا تُطِيلُ اَلْقَصَائِدَ . فَقَالَ :

اَبَى لِي اَنْ اُطِيلَ اَلشِّعْرَ قَصْدِي ‌ ‌ ‌ ‌ اِلَى اَلْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ

وَاِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ‌ ‌ ‌ ‌ حَذَفْتُ بِهِ اَلْفُضُولَ مِنَ اَلْجَوَابِ

فَأَبعثُهنَّ أَربَعةً وَستاً مُثقَّفةً بِأَلفاظٍ عِذابِ
وَهنَّ إِذا وَسَمتُ بِهنَّ قَوماً كَأَطواقِ الحَمائِمِ في الرِّقابِ

وَقالَ عليٌّ: ما رَأيتُ بليغاً قطُّ إِلَّا وَلهُ في القَولِ إِيجازٌ وَفي المَعاني إِطالةٌ. وَقيلَ لِإياسِ بنِ مُعاوِيَةَ: ما فيكَ عيبٌ غيرَ أَنَّكَ كَثيرُ الكَلامِ. قالَ: أَفتَسمَعونَ صَواباً أَم خَطأً. قالوا بل صَواباً. قالَ: فالزِّيادةُ مِنَ الخَيرِ خَيرٌ. وَلَيسَ كَما قالَ لِأَنَّ لِلكَلامِ غايةً وَلِنَشاطِ السّامِعينَ نِهايةً. وَما فَضَلَ عَن مِقدارِ الاحتِمالِ وَدَعا إِلى الاستِثقالِ وَصارَ سَبَباً لِلمَلالِ فَذلِكَ الهَذَرُ وَالإِسهابُ وَالخَطَلُ وَهوَ مَعيبٌ عِندَ كُلِّ لَبيبٍ. وَقالَ بَعضُهُم: البَلاغةُ بِالإِيجازِ أَنجَعُ مِنَ البَيانِ بِالإِطنابِ. وَقالوا: المِكثارُ كَحاطِبِ اللَّيلِ. وَمِثلُ الإِيجازِ الحَسَنِ كَقَولِهِ: وَخُذِ العَفوَ وَأمُر بِالعُرفِ وَأَعرِض عَنِ الجاهِلينَ. فَجَمَعَ جَميعَ مَكارِمِ الأَخلاقِ بِأَسرِها. لِأَنَّ في العَفوِ صِلةَ القاطِعينَ وَالصَّفحَ عَنِ الظّالِمينَ وَإِعطاءَ المانِعينَ. وَفي الأَمرِ بِالعُرفِ تَقوى اللهِ وَصِلةَ الرَّحِمِ وَصَونَ اللِّسانِ عَنِ الكَذِبِ وَغَضَّ الطَّرفِ عَنِ الحُرُماتِ وَالتَّبَرُّؤَ مِن كُلِّ قَبيحٍ لِأَنَّهُ لا يَجوزُ أَن يَأمُرَ بِالمَعروفِ وَهوَ يُلابِسُ شَيئاً مِنَ المُنكَرِ. وَفي الإِعراضِ عَنِ الجاهِلينَ الصَّبرُ وَالحِلمُ وَتَنزيهُ النَّفسِ عَن مُقابَلةِ السَّفيهِ مِمّا يوتِغُ الدِّينَ وَيُسقِطُ القُدرةَ. وَقَولُهُ: حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمي وَيُصِمُّ. وَقَولُهُ إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحراً. وَقَولُهُ: نِيَّةُ المُؤمِنِ خَيرٌ مِن عَمَلِهِ. وَقَولُهُ: تَركُ الشَّرِّ صَدَقةٌ. فَمَعاني هذا الكَلامِ أَكثَرُ مِن أَلفاظِهِ. وَإِذا أَرَدتَ أَن تَعرِفَ صِحَّةَ ذلِكَ

فَحُلَّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي اَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا اَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تُلَمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) اَيْ فَلْيَظْهَرْ اَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) اَيْ ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَاَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) اَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ اَعْرَابِيٍّ : اُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا اَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِاَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . اَيْ يَقُونَ اَعْرَاضَهُمْ بِاَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلهِ فِي يَدِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : اَمَّا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ.وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْاَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ اَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْاَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَاُ فِي مَلَاٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَاِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ اَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَاَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِاَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تَجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةَ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَاخِلَافَ فِي أَنَّ ٱلْعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يَسْلُكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوضِحْ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ : حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ . كَقَوْلِ ٱلْعُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ   إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْبُحَيْرُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَإِنْ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَافَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرُ . اَلَاتُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَاشَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا يَاصَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ

فَقَوْلُهُ : (يَاصَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاغَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَاعَيْبَ فِيهَا . لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . » فَاعْلَمْ ايُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا انَّ ٱلتَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَمَهْمَا امْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱللَّفْظَ هُوَ ٱلتَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَامَّا ٱلْاِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ انَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ انْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ ٱلْمُفْرَدُ وَٱلْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ اِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى ٱلتَّقْدِيرَ . (وَٱلْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى ٱلْقَصْرَ . وَٱعْلَمْ انَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَاِنَّ ٱلتَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِاَنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ اِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ اَجِدْ اَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ اَمَّا ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ فَاِنَّهُ عَجِيبُ ٱلْاَمْرِ شَبِيهٌ بِٱلسِّحْرِ وَذَاكَ اَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ ٱلذِّكْرِ اَفْصَحَ مِنَ ٱلذِّكْرِ وَٱلصَّمْتَ عَنِ ٱلْاِفَادَةِ اَزْيَدَ لِلْاِفَادَةِ وَتَجِدُكَ اَنْطَقَ مَا تَكُونُ اِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا اِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَٱلْاَصْلُ فِي ٱلْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى ٱخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ. وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهُ مَتَى أُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ ٱلطُّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْإِعْرَابِ كَقَوْلِنَا: أَهْلًا وَسَهْلًا. فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْأَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا: فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى أَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا. وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَإِلَيْهِ أَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ: كَأَنَّ أَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لَا يَزِيدُ بَعضُهَا عَلَى بَعْضٍ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ ٱلْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَٱلزَّكَاةَ مَغْرَمًا . وَقَوْلُهُ : إِيَّاكَ وَٱلْمُشَاوَرَةَ فَإِنَّهَا تُمِيتُ ٱلْغِرَّةَ وَتُحْيِي ٱلْعِزَّةَ . وَمِنْ أَلْفَاظِ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَاظِهِ وَإِنَّمَا يُكْرَهُ تَمْيِيزُهَا كَرَاهَةَ ٱلْإِطَالَةِ . وَمِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : سَأَلْتَ عَنْ خَبَرِي وَأَنَا فِي عَافِيَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا إِلَّا فَقْدُكَ وَنِعْمَةٍ لَا مَزِيدَ فِيهَا إِلَّا بِكَ . وَقَوْلُهُ : عَلَّمَتْنِي نَبْوَتُكَ سَلْوَتَكَ وَأَسْلَمَنِي يَأْسِي مِنْكَ إِلَى ٱلصَّبْرِ عَنْكَ . وَقَوْلُهُ : فَحَفِظَ ٱللّٰهُ ٱلنِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ وَتَوَلَّى إِصْلَاحَكَ وَٱلْإِصْلَاحَ إِلَيْكَ وَأَجْزَلَ مِنَ ٱلْخَيْرِ حَظَّكَ وَٱلْحَظَّ مِنْكَ وَمَنَّ عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا بِكَ . وَقَالَ آخَرُ يَئِسْتُ مِنْ صَلَاحِكَ بِي وَأَخَافُ فَسَادِي بِكَ وَقَدْ أَطْنَبَ فِي ذَمِّ ٱلْحِمَارِ مَنْ شَبَّهَكَ بِهِ . وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ قَوْلُ طَرَفَةَ :

سَتُبْدِي لَكَ ٱلْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِٱلْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تُهْدَى ٱلْأُمُورُ بِأَهْلِ ٱلرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ ... فَإِنْ تَأَبَّتْ فَبِٱلْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

أَمَّا ٱلَّذِي يُحْصِيهِمِ فَمُكَثِّرٌ ... أَمَّا ٱلَّذِي يُطْرِيهِمِ فَمُقَلِّلُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ ... عَلَيَّ وَلٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

وَمَا هَجَرْتُكَ ٱلنَّفْسُ أَنَّكَ عِنْدَهَا ... قَلِيلٌ وَلٰكِنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلْاِطْنَابِ: ٱلْمَنْطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْاِشْبَاعِ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ . وَافْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاِسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْغَبِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَأَ . كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ. فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ : مَا

ارى موضع نقصانٍ . وقال غيره : البلاغة الايجاز في غير عجزٍ والاطناب في غير خطلٍ . ولا شك في ان الكتب الصادرة عن السلاطين في الامور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة او الترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية . سبيلها ان تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب . فالاطناب بلاغة والتطويل عيٌّ . لان التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلًا بما يقرب . والاطناب بمنزلة سلوك طريقٍ بعيدٍ نزهٍ يحتوي على زيادة فائدةٍ . وقال الخليل : يختصر الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم . وقيل لابي عمرو ابن العلاء هل كانت العرب تطيل . قال : نعم كانت تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها . والاطناب اذا لم يكن منه بدٌّ ايجازٌ وهو في المواعظ خاصةً محمودٌ كما ان الايجاز في الافهام محمودٌ ممدوحٌ . والموعظة كقوله : افامن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون . او امن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون افامنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . فتكرير ما كرر من الالفاظ ها هنا في غاية حسن الموقع . وقيل لبعضهم : متى يحتاج الى الاكثار . قال : اذا عظم الخطب وانشد :

صموتٌ اذا ما الدهر زين اهله ... وفتّاق ابكار الكلام المحبّر

وقال آخر :

يرمون بالخطب الطوال وتارةً ... وحي الملاحظ خشية الرقباء

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يَقُلْ ... لَهُ اَطِلِ ٱلْقَوْلَ اَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَاِنْ هُوَ اَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضِي لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَاِنْ هُوَ اَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ اِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ اَطَالُوا . وَاِذَا اَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ اَطْنَبُوا . وَٱلْاِطَالَةُ وَٱلْاِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ اِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ اِلَى اَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَاَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِاَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا اَكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَاَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : اَوَ مَا عَلِمْتَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَاَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ اَنَّهُ : اِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْاَعْرَابَ اَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْاِشَارَةِ . وَاِذَا خَاطَبَ بَنِي اِسْرَائِيلَ اَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي اِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ اِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَاَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ اِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْاِيجَازِ بِٱلْاِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ اِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عِدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ   مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الأطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بِذٰلِكَ انهَا تَكُونُ ذَاتَ معَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ قَدِ ٱسْتُقْصِيَ فِيهَا شَرحُ تِلْكَ ٱلْحَادِثَةِ مِنْ قُبْحٍ اوْ غَيْرِهِ فَذٰلِكَ مُسلَّمٌ. وَإِنْ عَنَى بِذٰلِكَ انها تَكُونُ مُكَرَّرَةَ ٱلْمَعَانِي مُطَوَّلَةَ ٱلأَلفَاظِ قَصْدًا لِإِفهامِ ٱلعَامَّةِ فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ • وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ اِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ اَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ • وَعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقرَأُ عَلَى عَوامِّ ٱلنَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ اَلفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلأَشْعَارُ وَٱلْخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلْفَنِّ. وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلاِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلعَوَامِّ. وَسَأُبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَأُحَقِّقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ ٱلشُّبْهَةُ ٱلَّتِي خَبَطَ اَرْبَابُ عِلْمِ ٱلْبيَانِ مِنْ اَجْلِهَا وَقَالُوا اَقْوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ. وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ: اَنَّهُ إِذَا رَجَعْنَا اِلَى ٱلأَسْمَاءِ وَٱشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا ٱلِٱسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اَصْلِ ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ (مِنْ اَطْنَبَ فِي ٱلشَّيْءِ) إِذَا بَالَغَ فِيهِ. وَيُقَالُ: اَطْنَبَتِ ٱلرِّيحُ إِذَا ٱشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا • وَاَطْنَبَ فِي ٱلسَّيْرِ إِذَا ٱشْتَدَّ فِيهِ. وَعَلَى هٰذَا فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي اِيرادِ ٱلْمَعَانِي. وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ اَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبيَانِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا إِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا إِلَّا وَيُمْكِنُ ٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ. وَإِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُفرَدَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ اِفْرَادُهُ إِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ ٱلدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ • وَٱلَّذِي يُحَدُّ بِهِ اَنْ يُقَالَ: هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطوِيلِ اِذِ ٱلتَّطوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفظِ عَنِ ٱلمَعنَى لِغَيرِ فَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلتَّكرِيرُ فَانَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلمَعنَى مُرَدَّدًا كَقَولِكَ لِمَن تَستَدعِيهِ : اَسرِع اَسرِع. فَاِنَّ ٱلمَعنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفظَ وَاحِدٌ. وَٱلتَّكرِيرُ جُزءٌ مِنَ ٱلاِطنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكرِيرٍ يَأتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطنَابٌ وَلَيسَ كُلُّ اِطنَابٍ تَكرِيرًا يَأتِي لِفَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلَّذِي يَأتِي مِنَ ٱلتَّكرِيرِ لِغَيرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزءٌ مِنَ ٱلتَّطوِيلِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكرِيرٍ يَأتِي لِغَيرِ فَائِدَةٍ تَطوِيلٌ وَلَيسَ كُلُّ تَطوِيلٍ تَكرِيرًا يَأتِي لِغَيرِ فَائِدَةٍ . وَكُنتُ قَدَّمتُ ٱلقَولَ فِي بَابِ ٱلايجَازِ بِاَنَّ ٱلايجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلمَعنَى مِن غَيرِ زِيَادَةٍ عَلَيهِ . وَاِذَا تَقَرَّرَت هٰذِهِ ٱلحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلمُشَارُ اِلَيهَا فَاِنَّ مِثَالَ ٱلايجَازِ وَٱلاِطنَابِ وَٱلتَّطوِيلِ مِثَالُ مَقصَدٍ يُسلَكُ اِلَيهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلايجَازُ هُوَ اَقرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيهِ وَٱلاِطنَابُ وَٱلتَّطوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلبُعدِ اِلَيهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ ٱلاِطنَابِ تَشتَمِلُ عَلَى مَنزَهٍ مِنَ ٱلمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطوِيلِ وَٱلاِطنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلجُملَةِ ٱلوَاحِدَةِ مِنَ ٱلكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلجُمَلِ ٱلمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلجُمَلِ ٱلمُتَعَدِّدَةِ اَبلَغُ لِاَتِّسَاعِ ٱلمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّهُ بِجُملَتِهِ يَنقَسِمُ قِسمَينِ : (اَلقِسمُ ٱلاَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلجُملَةِ ٱلوَاحِدَةِ مِنَ ٱلكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا. اَمَا (ٱلحَقِيقَةُ) فَمِثلُ قَولِهِم : رَاَيتُهُ بِعَينِي وَقَبَضتُهُ بِيَدِي وَوَطِئتُهُ بِقَدَمِي وَذُقتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ. وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ :

(ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبَلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَداخلَتْ مَعانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسانُ مُتَقارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسانٍ لَجازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْها عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَها بِٱلْاشْتِهارِ لِعِظَمِ شَأْنِها . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَها بِٱلْبَكارَةِ أَيْ أَنَّها لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِها مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعانِيَ ٱلْمُتَداخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصافٍ مُتَبايِنَةٍ صارَ ذٰلِكَ إِطْنابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَراءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ　　وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذا ٱلْقَوْلِ إِنَّما هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَراجِيَهُ يُرَجَّى وَسائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ يَكُونَ راجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَراجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذا تَعَلَّقَ بِهِ رَجاءُ راجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلاحِ وَٱلنَّجاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكانِ رَجائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصافِ ٱلثَّلاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ أَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ أَوْكَدُ وُجُوهِهِ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ. وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ. كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَٱلْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ إِلَّا أَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ. وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصَدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ: وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصَدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ... فَاَقُولُ: قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ: كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلِٱخْتِصَارِ. وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ: اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ. وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ. وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ. وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ ٱلضِّبَاعُ ٱلطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَأُحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ ٱلْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ ٱلْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ. وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ ٱلضَّرْبِ كَلِيلٌ. وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ ٱلْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ ٱلْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ ٱلْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ ٱلسَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِٱللِّوَاءِ ٱلَّذِي خَصَّهُ ٱللهُ بِٱسْتِفْتَاحِ ٱلْمَقَالِدِ وَٱسْتِيطَاءِ ٱلْمَنَابِرِ وَعَلَى ٱللهِ إِتْمَامُ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي ٱفْتَتَحَهَا وَإِجَابَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ ٱلَّتِي ٱقْتَرَحَهَا وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ ٱلْإِجْمَالَ. وَلَوْ كُتِبَتْ عَلَى وَجْهِ ٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَٱلْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ ٱلْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ ٱلْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ ٱلْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ ٱلنِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ ٱلْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَٱحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ ٱلْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلذِّئَابِ وَٱلضِّبَاعِ. وَٱنْجَلَتِ ٱلْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ ٱلْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَٱلسَّلَامُ. فَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ ٱلْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاوَّل

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ ٱلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا اِذَا انْشَاهُ وَبَدَاهُ. وَيُقَالُ ٱبْتَدَعَ ٱلشَّيْءَ اِذَا ٱخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَٱلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ ٱلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيْضًا مِنْ صِيغَةِ ٱلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ ٱلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ اشْيَاءَ وَاِحْدَاثِهِ اِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَٱلْبَدِيعُ اَيْضًا ٱلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ . وَيُقَالُ : اَبْدَعَ ٱلشَّاعِرُ اِذَا صَنَعَ ٱلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيعُ ٱصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي ٱلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ ٱلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَانَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ إِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَإِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ انَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا إِلَّا بِشَرْطَيْنِ : انْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَانْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْأَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَإِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اوْ احَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . امَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَامَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَامَّا مَنْفَعَتُهُ فَاظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْأُذُنَ بِغَيْرِ اذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَإِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِأَنَّ ٱلْاَصْلَ وَإِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ ٱعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ ايْضًا لِأَنَّ ٱلْحُسْنَ إِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلِاسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضاً)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَأَخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ أَنَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تَعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ أَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي: (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ). أَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) اَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ اَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى اَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا اَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَاَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْاِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْاَبْيَنُ

البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلمْ انَّ قُدَماءَ ٱلْمُصنِّفِينَ كانُوا يَذكُرُونَ هٰذا ٱلفَنَّ فِي آخِرِ عِلمِ ٱلبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلكُتُبِ ٱلمُخْتَصَّةِ بِعِلمِ ٱلبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلعَبَّاسِ عَبدِٱللهِ بْنِ ٱلْمُعتَزِّ ٱلعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَاجَمَعَ مِنهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعفَرٍ ٱلكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنهَا عِشْرِينَ نَوعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبعَةٍ مِنهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . اَمَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبنِ ٱلْمُعتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَاجَمَعَ مِنهَا ابُو هِلَالٍ ٱلعَسكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٣ م) فِي ٱلعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاَضَافَ اِلَيهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي اَحْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاَغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فَاَوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاَضَافَ اِلَيهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنهَا عِشْرُونَ . وَاَجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلقُرْآنِيَّةِ

وسماه التحرير وهو اسم كتاب صنف فيه لانه لم يتكل على النقل دون النقد . وذكر انه وقف على اربعين كتابًا في هذا العلم . والبديعيات المشتهرة هي بديعية الشيخ الاديب صفي الدين الحلي سماها كافية البديعية وشرحها شرحًا حسنًا . حذا حذوه الشيخ عبد الرحمان الحميدي . وبديعية ابي جعفر احمد الرعيني المتوفى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧ م) وهذه البديعية تعرف ببديعية العميان . وبديعية الشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وبديعية الشيخ عز الدين الموصلي ووجيه الدين اليمني المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وبديعية الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) وسماها التقديم تشتمل على مئة وستة وثلاثين نوعًا ثم شرحها شرحًا مفيدًا وهو مجموع ادب قل ان يوجد في غيره . وبديعية الشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وتسمى نظم البديع ثم شرحها . وبديعية الفاضلة عائشة الباعونية نظمتها على مثال قصيدة الحموي مع عدم تسمية النوع . واتى بعدها الشيخ عبد الغني النابلسي ونظم قصيدتين التزم باحداهما تسمية النوع

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطالع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ رُحْ لِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ أَلْحَقَهُ كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

إِنّي اُسْتَعَرْتُ جِيادَ الدَّمْعِ فِي سَفَرِي   جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُّ بِاسْمِ ابْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِاسْمِ أَبِي   اِمْحَقْ يَا مَعْنَوِيٌّ فِي الْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطَفِي   كَأَدْمُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى الْإِلٰهُ الْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ اسْـ   تَخْدَمْتُهَا قَصْدَ إِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ الْعَنَاءَ وَلَا   مُ الْبَقَاءَ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

أَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى   يَا عَاذِلِي الْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ الْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ إِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَهُ   مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ   فَالْقَلْبُ مَا حَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ الذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ الْعَاذِلُ النَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ   فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَاتَّئِدْ وَاشْفَقْ وَلِنْ وَأَرِحْ   فَوِّفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَانْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

أَبَى نَوَالِيَ بِالتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا   أَبَانَ وَالِيَّ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةً وَجَدًى   وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ   عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بِرِّكَ اَخَا فَرَحٍ   فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْافْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

الموازبة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ   فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ   حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْـ   زَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ   فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ ٱسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي   فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ   فَقَالَ ٱرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ   سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ   مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ انْتَ بَلْ شُغُلٍ　　فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

اِنّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ اِذَا　　مَا شِبْتُ اَوْ عُدتُّ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ ٱتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي ٱصْطَفَاهُ هَوًى　　فَٱلْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ ٱلْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ اَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ　　بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي اَبْلَغِ ٱلْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ ٱلنَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ　　لَا فِي مَدِيحِ ٱلظِّبَا وَٱلْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الحالي او المعجم

نَبَذْتُ تَغْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ　　يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِٱلْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَاى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ　　تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِٱلسَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ　　مَا مِثْلُكُمْ بِٱحْتِمَالِ ٱلضُّرِّ وَٱلرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ اِبْهَامَ نُصْحِي ذَا ٱلْعَذُولُ وَكَمْ　　يَالَيْتَ اِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ ٱلْعَدَمِ

النزاهة

نَزِهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ　　اِذْ لَمْ ارَ ٱلْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ ٱلنَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ　　مُسْتَنْطِقًا فَمَهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفسِي لَهُم عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ   فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ   اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِاَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ   وَاَهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُخَبٍ   كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م   يَمِينِ ٱللهِ مُتَّحِمًا لِلُّغْزِ تَفتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ   وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا   بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا   لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا   لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنتَ تَابِعُهُ   يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ   فَاِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمَع

قدطَابَ لِلنَّفْسِ فِي ٱلْاَسْوَاءِ مَطْمَعُهَا　　بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعْدِلْ اِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ اِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا　　بَلَى اِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نفسُ عِي وَارْعَوِي وَاصْغِي اِلَى عَتَبِي　　حَتَّامَ اَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هِبِي اِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمْتُ مُرْتَضِيًا　　فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القَسَم

فَلَا اُنِلْتُ ٱلْمُنَى اِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا　　هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا اَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ　　اِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطّراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْاِلٰهِ اِبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا　　لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي اِطِّرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلّي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْاَنْصَارُ اَجْمَعُهُمْ　　فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا　　يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ　　وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعِظَمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهٌ ثُلَاثِيُّ اُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ　　آبٌ وَابْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ اَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَٱلْفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهْوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْاِنْسَانُ اَجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمُ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْاُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَانُانِ قَدْ اَشبهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا تَعطُّفٌ وَندًى كَالْنجْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشطِيرُ نِعمتِهِ مَا بَيْنَ اُمَّتِهِ كَالنُّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي ٱلقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَٱلطَّيُّ وَٱلنَّشرُ وَٱلتَّبْدِيلُ عَنْ كَرَمٍ لِلعُسْرِ وَٱليُسرِ وَٱلْاحوالِ وَٱلشِّيَمِ

الايغال

فِي ٱلسَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا اِلَى ٱلْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِٱلوَعْظِ كَمْ نُجِبَتْ لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ اِنْ قَالَ اَشْفِى وَاَحيَا بَالِيَ ٱلرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ مُثَبِّتُ ٱلْاَمْجَدَيْنِ ٱلعَهْدِ وَٱلذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَذْلِ كَٱلدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ ٱلجُودَ مَعْ بَسْطٍ لِرَاحَتِهِ لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ ٱلصَّلْبِ فِي فِرَقٍ مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجلدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عذلٍ اِهَانَــةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جَمعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقتهمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ جَوْرًا وَبعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ وَٱلْقَدْعُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا امَّا قِيَامَتُهُ فَاوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى م ٱلْعُلَا ارْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبّاً كَمَالِهِمِ   وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا ٱلْعَزْمَ بَأْساً اَسْكَنُوهُ مُحَلَّ   م ٱلْحُبِّ فِي ٱلسَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ ٱلْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ ٱلنُّفُوسِ هُمُ   وَبِٱتِّسَاعِ ٱلْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ ٱلنُّصْحِ فِعْلَ هُدًى   وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو   م ٱلْهَوَى هَوَى كَذَاكَ ٱلْعَابِدُ ٱلصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَباً مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ   كَمْ اَبْدَعُوا خُطَباً فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَاَلَّفَ ٱللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ   لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

ٱللَّفْظُ فِي ٱلْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ   فَلِلْمَعَانِي تَرَى ٱلْاَلْفَاظَ كَٱلْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا   عِقْدَ ٱلنَّشِيدِ فَٱعْجَبْ بِٱنْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ ٱلْوَزْنَ وَٱلْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ   صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي ٱللَّحْنِ وَٱلنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَراً اَضْحَى بِهِ غُرَراً   اَمْسَى لَنَا قَمَراً فِي لَيْلَةِ ٱلْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمْدِ فِي ٱلْأَفوَاهِ مُؤْتَلِفٌ مَعْ لفظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلْسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

اِبدَاعُ نَظْمِهِمِ دَمْعِي جَلَا وَحَلَا اِيدَاعُ نَثْرِهِمِ سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

مَا نَسْمَةٌ حَمَلَتْ مِسْكًا لِطَائِفِهَا يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْ تفرِيعِ فَضْلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلْإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا فَرَاحَ يَرْفُلُ بِٱلْإِثْرَاءِ ذُو ٱلْعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ إِلَى فُرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا فَعَادَ أَعوَزُهُمْ بِٱلْعِزِّ وَٱلْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرٍ غَدَا بِٱلْعِزِّ مُشْتَرَكًا صَدْرِ ٱلْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ مُسْتَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانٌ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ بَنَى ٱلْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ　　وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ　　ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَلِمِي　　رَوَّيْتُ فِي قَلْبِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْتَمِسِحٍ　　مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

تَسْجِيعِي وَمُنْتَظِمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي　　حَاكَيْتُ فِي رَنِّمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا　　فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ　　وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ　　عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا　　فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ　　يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمُ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا　　يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ فَٱلْمَرْءُ دَاخِلُهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي ٱلسَّكِينَةِ وَحْـ ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلُّ بِسَمَا وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ ٱلْعَرْشُ ٱلرَّفِيعُ وَبُرْجُ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ اَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ اِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَاَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللّٰهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ اَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ اَمَا تَعِي اَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُحَاكِمُهُمْ   كَٱللَّيْثِ كَٱلسَّيْفِ كَٱلْجَبَّارِ كَٱلضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ   يُشَاكِلُ ٱلْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِٱلْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ ٱلْقَلْبِ عَاطِفُهُ   إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَٱلدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ ٱلنُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ   وَلِلْعِدَا ٱلنَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ ٱلسَّمَاءِ بِهِ كَٱلْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ   رَاعَى ٱلنَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ ٱلْمَلْكُ وَٱلتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي   فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ ٱلسَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ   وَيُوجِبُ ٱلذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي ٱلنِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو ٱلتَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ   لَا مِنْ عَدِيدِ ٱلْعِدَا فِي ٱلْحَشْرِ وَٱلزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ ٱلْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي   إِلَى ٱلتَّقَرُّبِ مِنْ أُولَئِكَ ٱلْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَٱلْتِجَأْتُ لَهُ   بِٱلْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ ٱلْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي ٱلدَّهْرُ ضَيْمًا وَٱسْتَعَنْتُ بِهِ   إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَٱلْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ   جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى ٱلسَّيْلِ فِي ٱلتَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ   شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَٱلْحَيَا ٱلْعَرِمِ

نفي الشيء بإيجابه

لَا يَنْتَفِي ٱلْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا   وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ ٱلنِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفَيْ   قَضِيَّتِي فِي ٱلْقَضَا بِٱلْمَجْدِ وَٱلْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا   عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارِدة

تَوَارَدَ ٱلْفِكْرُ فِي مَدْحِ ٱلْأَزِمَّةِ   لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ   يَا حُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا   قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ ٱلْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ   وَلَّى عُزَيْمِي مُهَيْزِيمًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَأَزْرَقَ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ   سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِٱضْطِرَابِ جَنَانٍ وَٱضْطِرَامِ حَشًا   ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَالْقَلْبُ حَرَّقَهُ التَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ   وَالْجَفْنُ قَرَّحَهُ التَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي   فَأَسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى الْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي   وَعَسْجَدُ الْخَدِّ مِنْ ذَا الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ انْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا   وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ الْحَشْرِ وَالنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ الْآثِيمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ   مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِالْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَايِ   هَبْنِي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَاخْتِمْ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَعِكَ م   الْبَاهِي بِجَذْرِ السَّنَى يَا مُرْشِدَ الْأُمَمِ

* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ أَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً. وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ أَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِأَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ. فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِٱسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

اَصلَهُ بِالْمِثَالِ ٱلَّذِي مَثَّلَهُ . وَامَّا غَيْرُهُ مِنْ ارْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَانَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ ٱشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا ٱلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مِنَ ٱلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : ٱلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ ٱلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَامَّا ٱلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . امَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ ٱلضَّحِكِ وَٱلْبُكَاءِ وَٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ . وَقَالَ ايضًا : خَيْرُ ٱلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ ٱلْحَسَنِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَانْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَٱلثَّقِيلَ ٱلْمَرِيَّ بِٱلْخَفِيفِ ٱلْوَبِيِّ وَٱلصِّدْقَ بِٱلْكَذِبِ وَٱلسُّخْطَ بِٱلرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ ٱلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ احضره بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ انتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِٱسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَادُ أَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَأَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَأَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَاعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَأَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) أَنْ

يَكُونَ مِثلًا . فَٱلضَربُ ٱلاوَلُ يَتفَرَّعُ اِلَى فرعَينِ : (ٱلأَوَّلُ) مَا كَانَ بَينَ ٱلمُقَابَلِ بِهِ وَٱلمُقَابَلِ نَوعُ مُنَاسَبَةٍ وَتقَارُبٍ . كَقَولِ قُرَيطِ ٱبنِ اُنَيفٍ :

يَجزُونَ مِن ظُلمِ اَهلِ ٱلظُّلمِ مَغفِرَةً وَمِنْ اِسَاءَةِ اَهلِ ٱلسُّوءِ اِحسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلمَ بِٱلمَغفِرَةِ وَلَيسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا. اِلَّا اَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلمَغفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلعَدلِ حَسُنَتِ ٱلمُقَابَلَةُ بَينَهَا وَبَينَ ٱلظُّلمِ . (ٱلفَرعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَينَ ٱلمُقَابَلِ وَٱلمُقَابَلِ بِهِ بُعدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحسُنُ ٱستِعمَالُهُ . كَقَولِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطلُبُ ٱلدُّنيَا اِذَا لَم يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ اَوْ مَسَاءَةَ مُجرِمِ

فَانَّ ٱلمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَينَ ٱلمُحِبِّ وَٱلمُبغِضِ لَا بَينَ ٱلمُحِبِّ وَٱلمُجرِمِ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّربِ ضَربٌ مِنَ ٱلكَلَامِ يُسَمَّى ٱلمُؤَاخَاةَ بَينَ ٱلمَعَانِي وَٱلمُؤَاخَاةَ بَينَ ٱلمَبَانِي وَكَانَ يَنبَغِي اَنْ نَعقِدَ لَهُ بَابًا مُفرَدًا لٰكِنْ اِذْ رَاَينَاهُ يَنظُرُ اِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجهٍ وَصَلنَاهُ بِهِ. اَمَّا ٱلمُؤَاخَاةُ بَينَ ٱلمَعَانِي فَهُوَ اَنْ يُذكَرَ ٱلمَعنَى مَعَ اَخِيهِ لَا مَعَ ٱلاَجنَبِيِّ . مِثَالُهُ اَنْ تَذكُرَ وَصفًا مِنَ ٱلاَوصَافِ وَتَقرُنَهُ بِمَا يَقرُبُ مِنهُ وَيَلتَئِمُ بِهِ فَاِنْ ذَكَرتَهُ مَعَ مَا يَبعُدُ مِنهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَاِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَاَيتُ اَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلغَلَطِ كَثِيرًا كَقَولِهِ فِي وَصفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعتِدَالٌ وَٱنتِصَابُ قَدِّ وَجِلدُهُ يُشبِهُ وَشيَ ٱلبُردِ
كَاَنَّهَا ٱلهُدَّابُ فِي ٱلفِرِندِ مُحَدوَدِبُ ٱلظَّهرِ كَرِيمُ ٱلجَدِّ

فَانَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهرَ وَقَرَنَهُ بِذِكرِ ٱلْجِدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهرَ فِي جُملَةِ ٱلْخَلقِ وَٱلْجِدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَامَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَانَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحسَنُ انْ: يُقَالُ ٱلسَّهلُ وَٱلْوَعْرُ اوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا اي انْ يَكُونَ ٱللَّفظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ اوِ ٱلْافْرَادِ. وَاذَا انْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ اِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ اِلَى فَرْعَيْنِ: (احَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَاذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ اِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَانَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ انَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبِلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبِلَةٍ. وَاِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتْ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبِلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبِلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ اِذَا كَانَتْ اِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ اِنْ ضَلَلْتُ فَاِنَّمَا اَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَاِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي اِلَيَّ رَبِّي. فَاِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَاِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَاِنَّمَا اَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

• (عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

blaze extending widely on horse's forehead

اِعلَمْ انَّ ٱلتَّجنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجْهِ ٱلْكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلْمُحْدَثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَادْخَلُوا بَعْضَ تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ فِي بَعْضٍ. وَاِنَّمَا سُمِّيَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَٱعْلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلْبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱخْتَلَفَتْ اَقْوَالُهُمْ فِيهَا. فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ: هُوَ بَيَانُ ٱلْمَعَانِي بِاَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَجْمَعُهَا اَصْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ. وَقَالَ قُدَامَةُ: هُوَ ٱشْتِرَاكُ ٱلْمَعَانِي فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْاِشْتِقَاقِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُخْتَهَا. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْاَثِيرِ ٱلْجَزَرِيُّ: ٱلْجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ وَاحِدًا وَٱلْمَعْنَى مُخْتَلِفًا. وَقَالَ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ: هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ. فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ تَعْلِيقِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ. (قُلْتُ) اَمَّا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ لٰكِنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَامَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي إِلَى ٱلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَادَّى ذٰلِكَ إِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ مَا اَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلْاِصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ إِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلْاِشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ إِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَامَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَامَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَامَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلْاِشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجْزِ

عَلَى ٱلصَّدرِ) هٰذا لَاحاجَةَ إِلَيهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلْاحْتِرَازِ كَمَا يَظهَرُ فِي ٱلتَّمثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ: بِمُتَمَاثِلَينِ فِي ٱلحُرُوفِ اَوْ بَعضِهَا اَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ اَجوَدَ لِيَدخُلَ فِيهِ ٱلجِنَاسُ ٱلخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي اَختَارُهُ اَنَا فِي رَسْمِ ٱلجِنَاسِ اَنْ اَقُولَ : هُوَ ٱلْاِتيَانُ بِمُتَمَاثِلَينِ فِي ٱلحُرُوفِ اَوْ بَعضِهَا اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ اَوْ زِيَادَةٍ فِي اَحَدِهِمَا اَوْ بِمُتَخَالِفَينِ فِي ٱلتَّرتِيبِ نَظمًا اَوِ ٱلحَرَكَاتِ اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسمَ اَقرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَولِي (مُتَمَاثِلَينِ) جِنسٌ يَشمُلُ ٱلمُمَاثِلَ لَفظًا وَمَعنًى. وَقَوْلِي : (فِي ٱلحُرُوفِ) فَصلٌ اَخرَجَ ٱلمُمَاثِلَ مَعنًى كَقَولِكَ : زَيدٌ زَيدٌ. وَاَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحيَي يَحيَا . وَٱلجِنَاسَ ٱلمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ: نِعمَتُهُ ذَاهِبَهْ . اِنْ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَهْ. وَقَوْلِي : (اَوْ بَعضِهَا) اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلمُطَمِّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْاَمْوَاهُ وَٱلْاَموَالُ . وَٱلجِنَاسَ ٱلمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلهُمُومُ عَلَى قَدرِ ٱلهِمَمِ . وَقَوْلِي :(اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (اَوْ زِيَادَةٍ) فِي اَحَدِهِمَا اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْاَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : اَوْ بِمُتَخَالِفَينِ فِي ٱلتَّرتِيبِ اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (اَوِ ٱلحَرَكَاتِ) اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : اَغتَنِمْ هُبَاتِ ٱلهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظمًا) اَدخَلَ ٱلجِنَاسَ ٱلمَعنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : اَمرٌ عَظِيمٌ تَظهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْاَسَدِ . إِذَا اَرَدتَّ اَنْ تَقُولَ :

(بِاللَّيثِ) ثُمَّ عدلتَ إِلَى مَا يُرادِفُهُ وهُوَ ٱلاسَدُ . وقَولِي : (نَظمًا) إِعلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظمِ دُونَ ٱلنَّثرِ . وَتَظهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسمَ تَجِدْهُ مَا اخلَّ بِنَوعٍ مِنْ انوَاعِ ٱلجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ : إِنَّ ٱلجِنَاسَ يَحسُنُ إِذَا قلَّ وَاتَى فِي ٱلكَلَامِ عفوًا مِنْ غَيرِ كَدٍّ وَلَا ٱستِكرَاهٍ وَلَا بُعدٍ وَلَا مَيلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحتَجْ إِلَيهِ بِكَثرَةِ ٱستِعمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱختِرَاعِ ٱلمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلأَلفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلأَلفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنزِلَةَ ٱلأَطلَالِ ٱلبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعلَمْ انَّ انوَاعَ ٱلجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقتَصَرنَا عَلَى ذِكرِ اخَصِّهَا وَاوَّلُهَا ٱلجِنَاسُ (ٱلمُرَكَّبُ) وَهُوَ انْ يَكُونَ احَدُ ٱلرُّكنَينِ كَلِمَةً مُفرَدَةً وَٱلأُخرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَينِ وهُوَ عَلَى ضَربَينِ : فَٱلأَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخطًّا كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهرُ بِنَابِهْ   لَيتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى ٱلمَفرُوقَ كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً   مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغتَ فِي تَهذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ   عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزًّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيّ:

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ   لِتَقْتَنِي ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ:

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ   بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ   وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ. وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَكَمْ بِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ   مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ). فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ   تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ   لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ:

فيا لكَ مِنْ حزمٍ وعَزمٍ طواهُما ... جديدُ الرّدى تحتَ الصَّفا والصَّفائحِ

وَارقُّ ما سمِعتُ في هذا الباب قولُ القائلِ :

إِنَّ البُكاءَ هُوَ الشِّفاءُ ... مِنَ الجوى بَيْنَ الجوانحْ

وَامّا (اللاحِقُ) فهوَ ما أُبدِلَ في احدِ رُكنيهِ حرفٌ مِنْ غيرِ مخرجِهِ كقولِ بعضِهِمْ في جوابِ رِسالةٍ : وَصلَ كِتابُكَ فتناولتُهُ بِاليمينِ وَوَضَعتُهُ مكانَ العِقدِ الثَّمينِ . وَكقولِ الآخرِ : امَّا اليتيمَ فلا تقهرْ . وَامَّا السّائِلَ فلا تنهرْ . وَالفرقُ بَيْنَ الجناسِ اللّاحِقِ وَالجناسِ المُضارِعِ انَّ حُروفَ اللّاحِقِ لَيستْ مِنْ مخرجٍ واحِدٍ كالنُّونِ وَالقافِ في : (تَقْهرْ وتَنْهرْ) . وَامّا حُروفُ المُضارِعِ فإِنّها مُتَشابهةٌ في المَخرجِ كما وَرَدَ في الحَديثِ : إِنَّ الخَيلَ مَعقودٌ بِنَواصيها الخَيْرُ . وَمِثلُهُ قولُ بَعضِهِم : البَرايا اهدافُ البَلايا . فإِنَّ الرّاءَ وَاللّامَ مِنْ مَخرجٍ واحِدٍ

وَمِنْ انواعِ التَّجنيسِ (التّامُّ) . وَهُوَ ما تَماثلَ رُكناهُ وَاتَّفَقا لَفظاً وَاختلفا مَعنًى مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ في تَصحيحِ تَركيبِهِما وَاختِلافِ حَرَكتِهِما سَواءٌ كانا مِنِ اسمَيْنِ اوْ مِنْ فِعلَيْنِ اوْ مِنِ اسمٍ وَفِعلٍ فإِنَّهُمْ قالوا : إِذا انتظمَ رُكناهُ مِنْ نَوعٍ واحِدٍ كاسمَيْنِ اوْ فِعلَيْنِ سُمِّيَ مُماثِلًا وَإِنِ انتظما مِنْ نَوعَيْنِ كاسمٍ وَفِعلٍ سُمِّيَ مُستوفًى . وَجُلُّ القَصدِ تَماثُلُ الرُّكنَيْنِ في اللَّفظِ وَالخطِّ وَالحَرَكةِ وَاختِلافُهُما في المَعنى . فمِنهُ قولُ اميرِ المُؤمنينَ عَليٍّ : صَولةُ الباطِلِ ساعةٌ وَصولةُ الحَقِّ إِلى السّاعةِ . وَمِنَ الشِّعرِ قولُ بَعضِهِمْ في رِثاءِ صَغيرٍ اسمُهُ يَحيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ   اِلَى رَدِّ اَمْرِ ٱللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ اِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى   وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ اَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَاَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي اَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَٱلطَّرَفِ وَيُسَمَّى اَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ . وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي اَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي اَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ ٱنْصَاعَ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ اِلَيَّ عَوَارِفُ   ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ   لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا اِلَّا اَنَّ اَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ اِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

اَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ وَجْهًا وَفَمًا   اِنْ لَمْ يَكُنْ اَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ . سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلأَنَامِ مَنَاهِلٌ   تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ   وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي. وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا   أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا   رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلأَرَّجَانِيِّ:

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ   لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ   وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارَبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِٱشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِٱقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اِنْ تَرَ ٱلدُّنيا اَغارَتْ وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى كُلَّمَا جَارَتْ اَجَارَتْ

وَمِنْ اَنوَاعِ ٱلجِنَاسِ (ٱلمَعنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحدُ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعنَى ٱلآخَرِ فِي غَيرِ اَلفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ ٱستَدرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلمُتَاخِّرِينَ وَٱستَخرَجُوهُ وَبَعضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوعِ فِي ٱلكَلَامِ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقصِدُ ٱلمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلوَزْنُ عَلَى اِثبَاتِ اَحدِ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ فَيَعدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعنًى وَيُخَالِفُهُ لَفظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوعِ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضطَرُّهُ اِلَى ٱلاِتيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمثِلَةِ اَربَابِ ٱلبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوعِ قَولُ ٱلشَّاعِرِ يَمدَحُ ٱلمُهَلَّبَ بنَ اَبِي صُفرَةَ وَيَذكُرُ فِعلَهُ بِقَطَرِيِّ بنِ ٱلفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاَجفَلَتْ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدهُ ٱلوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ لِاَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ . وَٱعلَمْ اَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِندَ نَظمِ هٰذِهِ ٱلاَبيَاتِ مَا نَحَوا هٰذِهِ ٱلمَقَاصِدَ ٱلبَعِيدَةِ . وَلَا يَخفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوَّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرَّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلعقُولِ مُشتَقَّةً مِنَ ٱلمُثولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِانْتِصَابُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجتَمِعُ فِي ٱلمَثَلِ اَربَعَةٌ لَاتَجتَمِعُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلكَلَامِ اِيجَازُ ٱللَّفظِ وَاِصَابَةُ ٱلمَعنَى وَحُسنُ ٱلتَّشبِيهِ وَجُودَةُ ٱلكِنَايَةِ فَهوَ نِهَايَةُ ٱلبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبنُ ٱلمُقَفَّعِ : اِذَا جُعِلَ ٱلكَلَامُ مَثَلًا كَانَ اَوضَحَ لِلمَنطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمعِ وَاَوسَعَ لِشُعُوبِ ٱلحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : اِنَّ ٱلاَمثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلكَلَامِ وَجَوهَرُ ٱللَّفظِ وَحُلَى ٱلمَعنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتهَا ٱلعَرَبُ وَقَدَّمَتهَا ٱلعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ اَبقَى مِنَ ٱلشِّعرِ وَاَشرَفُ مِنَ ٱلخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَاعَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : اَسيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا اَنتَ اِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ يَعرِفُهُ ٱلجَاهِلُ وَٱلغَابِرُ

هٰذَا وَاِنَّ ٱلاَمثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلبَادِي وَٱلحَاضِرِ . وَتُقَيَّدُ اَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحتَاجُ ٱلخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ اِلَى اِدمَاجِهَا وَاِدرَاجِهَا لِاَشتِمَالِهَا عَلَى اَسَالِيبِ ٱلحُسنِ وَٱلجَمَالِ

وَٱعلَمْ اَنَّ ٱلحَاجَةَ اِلَى ٱلاَمثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلاَمثَالَ اِلَّا لِاَسبَابٍ اَوجَبَتهَا وَحَوَادِثَ ٱقتَضَتهَا . فَصَارَ ٱلمَثَلُ ٱلمَضرُوبُ لِاَمرٍ مِنَ ٱلاُمُورِ عِندَهُمْ كَٱلعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيسَ فِي كَلَامِهِمْ اَوجَزُ مِنهَا وَلَا اَشَدُّ ٱختِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا اَذكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَاَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ :(إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدَّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ :(إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلٌّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَلويحاً صارتْ مِنْ اوجزِ ٱلكَلامِ وَاكثرِهِ ٱختِصاراً . وَمِنْ اجلِ ذٰلكَ قِيلَ فِي حدِّ ٱلمَثَلِ : إِنَّهُ ٱلقَوْلُ ٱلوَجِيزُ ٱلمُرسَلُ لِيُعملَ عليهِ وَحَيثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلمَثَابَةِ فَلَا يَنبَغِي ٱلاِخلَالُ بِمعرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلحَكِيمِ انْ يَجتَنِبَ امثَالَ ٱلعَامَّةِ ٱلغَوغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِامثَالِ ٱلعُلَمَاءِ ٱلأُدَبَاءِ فَإِنَّ لِكُلِّ صِنفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ امثَالاً تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلاً سَاقِطاً وَتَشبِيهاً مُستَقبَحاً . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : إِحدَاهُمَا انَّ ٱلأَمثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ إِلَّا مَثَلٌ مَرذُولٌ وَتَشبِيهٌ مَعلُولٌ. وَٱلثَّانِيَةُ انَّ ٱلأَمثَالَ مُستَخرَجَةٌ مِنْ احوَالِ ٱلمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيهِ تَكُونُ امثَالُهُمْ . فَلِهَاتَينِ ٱلعِلَّتَينِ وَقَعَ ٱلفَرقُ بَينَ امثَالِ ٱلخَاصَّةِ وَامثَالِ ٱلعَامَّةِ وَرُبَّمَا الِفَ ٱلمُتَخَصِّصُ مَثَلاً عَامِّيّاً اوْ تَشبِيهاً رَكِيكاً لِكَثْرَةِ مَا يَطرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلأَرَاذِلِ فَيَستَرسِلُ فِي ضَربِهِ مَثَلاً فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلاً كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلأَصمَعِيِّ : إِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَأَلَهُ يَوماً عَنْ انسَابِ بَعضِ ٱلعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلخَبِيرِ

سَقَطتَ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ : اَسْقَطَ ٱللّٰهُ جَنْبَيْكَ اَتُخَاطِبُ اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْخِطَابِ . فَكَانَ ٱلْفَضلُ ٱبْنُ ٱلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِ اَعْلَمَ بِمَا يُسْتَعْمَلُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلْخُلَفَاءِ مِنَ ٱلاَصْمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ . وَلِلْاَمْثَالِ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ لَا يَكَادُ ٱلْكَلَامُ ٱلْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلْعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ ٱلعِلْمُ بِهَا سَابِقًا وَٱلْكُلُّ عَلَيْهَا مُوَافِقًا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يُسْرِعَ وُصُولُهَا لِلْفَهْمِ وَيَعْجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلْوَهْمِ مِنْ غَيْرِ ٱرْتِيَاءٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي ٱسْتِنْبَاطِهَا . وَٱلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبْلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا . فَاِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِي ٱلْاَمْثَالِ ٱلْمَضْرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلْاَرْبَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلْكَلَامِ وَجَلَاءً لِلْمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفْهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ ٱلْاِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ ٱلْخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَمِيقِ ٱلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلْقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا اخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَالْقَى شَبَكَتَهُ فَاصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاى ايضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَاخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي امْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ امْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اصَابَ ارْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَاهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ احْسَنَ فَائِدَةً وَاجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ انْ يَعْلَمَ انَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ارْبَعَةِ اغْرَاضٍ : احَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى الْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِانَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ انْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ اَبَدًا. وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ اِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ: لَا تُحْسِنُ ٱلْمُحَادَثَةَ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ. وَقَالُوا: تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِٱسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ. وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ. وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة:

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدَّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق البلغاء فيهِ ... واَلباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسبكها لعالمها فضيلهْ

اَلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ اَنْ لَا يُقْتَضَبَ اَقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَاَنْ يُتَوَصَّلَ اِلَى اِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَاَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ اَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ اَلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي اَلْمَثَلِ : اِنَّ اَلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ اَصْلٍ وَاحِدٍ اِلَى وُجُوهٍ مِنَ اَلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ اِذْ كَانَ اَلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي اَلْجَلِيسِ اَلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : اِنِّي مَا اَمَلُّ اَلْحَدِيثَ . فَقَالَ اَلسَّامِعُ : اِنَّمَا يُمَلُّ اَلْعَتِيقُ لَا اَلْحَدِيثُ . وَقَدْ اَكْثَرَتِ اَلشُّعَرَاءُ مِنَ اَلْاِغْرَاقِ فِي هٰذَا اَلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ اَلْعَبَّاسِ اَلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَاَنَّ اَطْيَبَهَا غَثِيثُ
اِلَّا اَلْحَدِيثَ فَاِنَّهُ ... مِثْلُ اَسْمِهِ اَبَدًا حَدِيثُ

وَاَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا اَلْمَعْنَى قَوْلُ اِبْرَاهِيمَ بْنِ اَلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ اِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ اَلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ اَلْمُحَدِّثِينَ مِنْ اَهْلِ اَلْاَدَبِ اَنَّ مِنَ اَلْاَدَبِ عَدَمَ اِطَالَةِ اَلْحَدِيثِ مِنَ اَلنَّدِيمِ وَاَنَّ اَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَاَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ اَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ اَلْاَحَادِيثَ اَلطِّوَالَ ذَاتَ اَلْمَعَانِي اَلْمُغْلَقَةِ وَاَلْاَلْفَاظِ اَلْحَشْوِيَّةِ اَلَّتِي اَفْتَنَّ بِاَقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ اَلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا اَلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى اَوَاخِرِهَا اَلْكُؤُوسُ . فَاِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ اَلْقُصَّاصِ اَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ اَلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا اَلْمَعْنَى فَاَجَادَ فِيهِ عَبْدُ اَللّٰهِ بْنُ اَلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ اَوْصَافِ اَلشَّرَابِ عَلَى اَلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ أَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ   هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعهِ

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : أَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ إِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ أَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ إِلَى أَوَّلِ حُدُوثِ أَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ أَوْ دَوْلَةٍ أَوْ أَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ أَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ إِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ إِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ أَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ أَشْخَاصِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ أَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ ٱلعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَشَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْأَحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَمَّا بَعْدُ فَاِنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَـداوَلُهَا ٱلْأُمَمُ وَٱلْاَجْيَالُ وَتُشَدُّ اِلَيْهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو اِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ وَٱلْاَغفَالُ . وَتَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْاَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ . اِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اَخْبَارٍ عَنِ ٱلْاَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلْاَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلْاَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلْاَنْدِيَةُ اِذَا غَصَّهَا ٱلِاحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلْاَحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلْمَجَالُ . وَعَمَرُوا ٱلْاَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذٰلِكَ اَصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِاَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَاِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْاِسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اَخْبَارَ ٱلْاَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَاَوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلْآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَاَدَّوْهَا اِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا اَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْاَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْاَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا . فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ . وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ . وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْاَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ . وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْاَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ . وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ . وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ . وَٱلنَّاقِلُ اِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ اِذَا تَمُقُلُ . وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَخْبَارِ وَاَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْاُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْاِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ . وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ ٱلْمُتَاخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْاَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ اِسْحَقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْاَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ . ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَاِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْاَثْبَاتِ . وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ اَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ . وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ اَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي اَحْوَالِهِ تَرْجِعُ اِلَيْهَا ٱلْاَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ اِنَّ اَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْاِسْلَامِ فِي

ٱلآفاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَاتِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

متطلعاً بعدُ إلى افتقادِ احوالِ مبادِىء الدُّولِ ومراتِبها. مُفتِّشاً عن اسبابِ تزاحُمِها او تعاقبِها. باحثاً عن المقنعِ في تباينها او في تناسبها. ثمَّ جاء آخرون بإفراطِ الاختصارِ. وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوكِ والاقتصارِ. مقطوعةً عن الانسابِ والاخبارِ. موضوعةً عليها اعدادُ اياَّمِهم بحروفِ الغبارِ. كما فعله ابنُ رشيقٍ في ميزانِ العملِ ومن اقتفى هذا الاثرَ من الهملِ. وليس يعتبرُ لهؤلاء مقالٌ. ولا يعدُّ لهم ثبوتٌ ولا انتقالٌ. لما اذهبوا من الفوائدِ. واخلُّوا بالمذاهبِ المعروفةِ للمؤرِّخينَ والعوائدِ

وقد زلَّت اقدامُ كثيرٍ من الاثباتِ والمؤرِّخينَ الحفاظِ في مثلِ هذهِ الاحاديثِ والآراء. وعلقت بافكارِهم ونقلها عنهم الكافَّةُ من ضعفةِ النظرِ والغفلةِ عن القياسِ وتلقوها هم ايضاً كذلك من غيرِ بحثٍ ولا رويَّةٍ واندرجت في محفوظاتِهم حتَّى صار فنُّ التأريخِ واهياً مختلطاً. وناظرهُ مرتبكاً وعُدَّ من مناحي العامَّةِ. فاذاً يحتاجُ صاحبُ هذا الفنِّ إلى العلمِ بقواعدِ السياسةِ وطبائعِ الموجوداتِ واختلافِ الأُممِ والبقاعِ والاعصارِ في السيرِ والاخلاقِ والعوائدِ والنِّحلِ والمذاهبِ وسائرِ الاحوالِ والاحاطةِ بالحاضرِ من ذلكَ. ومماثلةِ ما بينهُ وبينَ الغائبِ من الوفاقِ او بونِ ما بينهما من الخلافِ وتعليلِ المتفقِ منها والمختلفِ. والقيامِ على أُصولِ الدُّولِ والمللِ ومبادِىء ظهورها واسبابِ حدوثِها ودواعي كونِها. واحوالِ القائمينَ بها واخبارِهم حتَّى يكونَ مستوعباً لاسبابِ كلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّأْرِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْعَائِدَةِ إِذْ هُوَ يَقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ .فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تنطِقَ فِيهِ اِلَّا بِٱلْعدلِ . وَاَنْ تعزِلَ سُلطَانَ ٱلْهوَى وَتَخرُجَ مِنْ حُـكمِ ٱلْمَنشَإِ وَٱلْمَربَى وَتَفرِضَ نَفسَكَ غَرِيبًا عَنهُمْ وَاَجنَبِيًّا بَينَهُمْ . وَثَانِيهِمَا اَنْ تُعبِّرَ عنِ ٱلْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقرُبُ مِنَ ٱلْاَفهامِ لِتَنفَعَ بِهِ كُلَّ اَحدٍ عَادِلًا عَنِ ٱلعِبَارَاتِ ٱلْمُستَصعَبَةِ ٱلَّتِي يُقصَدُ فِيهَا اِظهَارُ ٱلْفَصَاحَةِ وَاِثبَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَاَيتُ مُصَنِّفِي ٱلْـكُتُبِ قَدِ ٱعتَرَضَتهُمْ مَحَبَّةُ اِظهَارِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ اَغرَاضُهُمْ وَٱعتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَاِنَّ كُتُبَ ٱلتَّوَارِيخِ اِنْ نُظِرَ بِعَينِ ٱلْاِنصَافِ اِلَيهَا رُئِيَتْ اَنفَعَ مِنَ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلَّتِي لَهِجَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَاَخذُوا اَولَادَهُمْ بِحِفظِهَا فَاِنَّ ٱلْحَمَاسَةَ لَا يُستَفَادُ مِنهَا اَكثَرُ مِنَ ٱلتَّرغِيبِ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ ٱلْاَخلَاقِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْمُسَمَّى بَابَ ٱلْاَدَبِ وَٱلتَّاَنُّسِ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلشِّعرِيَّةِ . وَٱلتَّأرِيخُ يُستَفَادُ مِنـهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْمَذكُورَةُ . وَيُستَفَادُ مِنهُ قَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَاَدَوَاتُ ٱلرِّئَاسَةِ . فَهذَا فِيهِ مَا فِي ٱلْحَمَاسَةِ وَلَيسَ فِي ٱلْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلْعَقلَ قُوَّةً وَٱلذِّهنَ حِدَّةً وَٱلْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ ٱلذَّكِيِّ بِمَنزِلَةِ ٱلْمِسَنِّ لِلفُولَاذِ ٱلْجَيِّدِ وَهُوَ اَيضًا اَنفَعُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي ٱلنَّاسُ فِيهَا مُعتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ اِذِ ٱلْمَقَامَاتُ لَا يُستَفَادُ مِنهَا سِوَى ٱلتَّمَرُّنِ عَلَى ٱلْاِنشَاءِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلنَّظمِ وَٱلنَّثرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ اِلَّا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ ٱلْهِمَّةَ اِذْ هُوَ مَبنِيٌّ عَلَى ٱلسُّؤَالِ وَٱلْاِستِجدَاءِ وَٱلتَّحَيُّلِ ٱلْقَبِيحِ عَلَى تَحصِيلِ ٱلنَّزرِ ٱلطَّفِيفِ فَاِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعضُ ٱلنَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ وَٱلْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

ناسٌ اِلَى نَهجِ امِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ ابِي طَالِبٍ : فَاِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَادنَى فَوائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوارِيخِ فَاِنَّ ٱلاِنْسانَ رُبَّمَا اَضجَرَتهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلاَشْغَالُ فَاِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا اَنسَتْهُ ٱلاَشْغَالُ . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبَّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(اَلْاَصْلُ ٱلْاَوَّلُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ انواعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِاَسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرجِعُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ اِلَى مَعْنَيَيْنِ: (اَلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ اِمَّا بِٱلِافْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِاَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ اِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . اَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ اَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَاِنَّ اَمرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ اَصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلْاَبْتِدَاءَاتِ . (اَلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ اَتَى فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . اَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ اَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ اَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ اَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ اَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ اِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ اَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِساطاً لِمَا يُرِيدُ ٱلقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِاقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

الكاتب قد اخلَّ من الصناعة بمعظمها وترك من البلاغة غاية محكمها بل يجب ان بدا بخطاب رئيس او نظير او مرؤوس ان يكون ما يتخلل مكاتبته من الالفاظ على اتساق الى آخرها واطراد من غير مخالفة بينها ولا مضادة ولا مناقضة . نعم يحسن ذلك في معاتبات الاخوان والمداعبات الجارية بين الخلان . . . (الاصل الخامس) الادعية التي جرت عادة السلف وتبعهم الخلف باستعمالها في المكاتبات. والنظر فيها من ستة اوجه : (الاول) ان يعرف مراتب الدعاء ليوقعها في مواقعها ويوردها في مواردها. ويأتي ذلك في عدة ادعية منها : الدعاء باطالة البقاء والدعاء باطالة العمر . فالدعاء باطالة البقاء ارفع من الدعاء باطالة العمر . وذلك ان البقاء لا يدل على مدة تنقضي لانه ضد الفناء والعمر يدل على مدة تنقضي ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر . . (الثاني) ان يعرف ما يناسب كل واحد من ارباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به فيأتي بالدعاء في مكاتبة الملوك بدوام السلطان وخلود الملك . والى الامراء بالدعاء بعز النصر ومداومة النعمة . والى الوزراء من ارباب الاقلام بسبوغ النعماء وتخليد السعادة ودوام المجد. والى القضاة والحكام بالدعاء بعز الاحكام . والى التجار بالدعاء بمزيد الاقبال وشبه ذلك . (والثالث) ان يعرف ما يناسب كل حالة من حالات المكاتبات فيأتي كل حالة بما يناسبها من الدعاء فتكون الادعية دالة على مقاصد الكتاب

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ اَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ. (ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . . كَٱلْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ . (ٱلْأَصْلُ ٱلسَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصِدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ : (ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللهَ وَإِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱللهِ وَٱلرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا . وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضًا اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ : خَلَّدَ ٱللهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . (ٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ اِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْإِشَارَةِ اِذَا اَلْجَأَتْهُ ٱلْحَالُ اِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ اِطِّرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَاِسَاءَتُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ ٱلْأَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِئُ اِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنًى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يصلُ إليهِ فهمهُ مِنَ الخطابِ (استشهادٌ مِن كِتابِ الصِناعتينِ)..
(الأصلُ التاسعُ) أن يُراعيَ رُتبةَ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ إليهِ في الخطابِ فيُعبّرَ عن كلّ واحدٍ منهما بما يليقُ بهِ . ويخاطِبَ المكتوبَ إليهِ بما يليقُ بمقامِهِ . فأمّا المكتوبُ عنهُ فيختلفُ الحالُ فيهِ باختلافِ منصبِهِ ورُتبتِهِ فيُعبَّرُ في الكُتُبِ الصادرةِ عن أبوابِ الخلافةِ بأميرِ المؤمنينَ مِثلُ أن يُقالَ : فجرى أمرُ أميرِ المؤمنينَ في كذا على كذا . وأوعزَ أميرُ المؤمنينَ إلى فلانٍ بكذا واقتضى رأيُ أميرِ المؤمنينَ كذا وهلُمَّ جرًّا. وكذلكَ أن يعرِفَ قدرَ المكتوبِ إليهِ مِنَ الرؤساءِ والنظراءِ والعلماءِ والوُكلاءِ ليفرقَ بينَ من يكتُبُ إليهِ.. ألا ترى أنكَ لو خاطبتَ سلطانًا أو وزيرًا بالتعزيةِ عن المصيبةِ مِن مصائبِ الدنيا لما جازَ أن تبنيَ الكلامَ على وعظِهِ وتبصيرِهِ وإرشادِهِ وحضِّهِ على الأخذِ بحظٍّ مِنَ الصبرِ .. وإنّما الصوابُ أن تبنيَ الخطابَ على أنّهُ أعلى شأنًا وأرفعُ مكانًا مِن أن يُعزّى بخلافِ المتأخّرِ في الرُتبةِ فإنّهُ إنّما يُعزّى تنبيهًا وتذكيرًا وتصبيرًا وتعريفًا للواجبِ في تلقّي السرّاءِ بالشكرِ والضرّاءِ بالصبرِ ..
(الأصلُ العاشرُ) أن يُراعيَ مواقعَ الآياتِ والسجعَ في الكُتُبِ وذِكرَ أبياتِ الشِعرِ في المكاتباتِ ...

الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوَّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَناوُلِ ٱلْمعَانِي مِمَّنْ تقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ على قوَالِبِ مَنْ سبقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخذَهَا اَنْ يَكْسُوهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فعلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنطِقُ ٱلطِّفلُ بعْدَ ٱستِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . على اَنَّ ٱلمعَانِيَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فرُبَّمَا وَقعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبطِيِّ وَٱلزَّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَاَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقعَ لِلْاَوَّلِ وقعَ لِلْآخِرِ . وَهٰذَا اَمْرٌ عَرَفْتُـهُ مِنْ نَفسِي فَلَسْتُ اَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفظًا مِنْ عِنْـدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفظِهِ كَانَ هُوَ اَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقدَّمَهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبَا عُذرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفظَهُ عَلَى مَعنَاهُ . وَمَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبقَ اِلَيْهِ لَيسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرجِعُ اِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ اِلَيْهِ . فَٱلْمَعنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَاَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخَذَهُ بِلَفظِهِ كُلِّهِ وَاَخَذَهُ فَاَفسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْاِظلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ:

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفْضَلَتْ

عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَبَّعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ. أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلُهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فَمِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ   إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولٰئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ   فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا   تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ   بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا   وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا   أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ ادْرِ انَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلَا انَا مِنْهُ مَا افَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... افَدتُّ وَاعْدَانِي فَاتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَاحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : انَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَاحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهِبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ ارْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ ايْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِانَّ ٱلْاغْمَادَ فِيهِ اشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ ابُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ اطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْانَابِيبُ

فَقَالَ ابُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ احْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ .
وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَاَنَّمَا　　يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِهِ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَاَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ　　يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْاَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهَفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا　　لَوْ اُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا　　لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ ٱلْهِلَالَ اِذَا رَاَيْتَ نُمُوَّهُ　　اَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ　　لَوَ اَنَّ ٱلْمَنَايَا اَنْسَاَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا. وَاَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا　　اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ اِلَّا　　وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْاَمَانِي　　وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ
فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ
وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأتُ مَدحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدنَى ٱلَّذِي عِندِي

وَمِنْ هَا هُنَا اخَذَ ابُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ اثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلأَلفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ اطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ افْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ اعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ ٱلْحَبْـ ـبُ وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ ابُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللّٰهِ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ احْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ

أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ

خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا اَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ اَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَاَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ اَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . اَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسِّدَادُ فَمِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ　　لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ
حَالٌ تَصِيحُ بِمَا اَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً　　وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ　　فَمَا يُدَاوِيكُمُ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ اَحْسَنَ ٱلِاتِّبَاعَ اَيْضًا اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : اَحَقُّ مَنْ اَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَاَخَذَهُ اَخْذًا ظَاهِرًا اَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَاَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَاَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً　　حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَاَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ اَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ اَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : اَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ أَبِي رُؤَادٍ : مَا أَحسَنَ هٰذَا مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ رَأَيتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ أَبيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

أَفلَتْ بَطَالَتُـهُ وَرَاجَعَهُ حِلْمٌ وَأَعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ وَأَعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَـةٍ غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ أَمْسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفلَتْ بَطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا أَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ أَسْهَلُ مِنَ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ أَوْ تَنقُصُ مِنهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدْتَ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدْتَ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَنْحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَنْحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ فَمِثَالُـهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صَدْرِ كَلَامِ قُلَيْبِ ٱلْمُعْتَزِلِيِّ . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي فَمِثَالُهُ مَا ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

نَطْلُبُ ٱلْأَكْثَرَ فِي ٱلدُّنْيَا وَقَدْ   تَبْلُغُ ٱلْحَاجَةُ فِيهَا بِٱلْأَقَلِّ

ثُمَّ قَالَ : فَإِذَا نَثَرْتَ ذٰلِكَ وَلَمْ تَزِدْ فِي أَلْفَاظِهِ شَيْئًا قُلْتَ : نَطْلُبُ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْأَكْثَرَ وَنَبْلُغُ مِنْهَا ٱلْحَاجَةَ بِٱلْأَقَلِّ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ أَنْ تُوضَعَ أَلْفَاظُ ٱلْبَيْتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يَحْسُنُ وَضْعُهَا فِي غَيْرِهَا فَيَنْحَلُّ إِذَا نُثِرَ بِتَأْخِيرِ لَفْظٍ وَتَقْدِيمِ آخَرَ فَيَحْتَاجُ نَثْرُهُ إِلَى ٱلنُّقْصَانِ مِنْهُ وَٱلزِّيَادَةِ فِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَيْضًا :

يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ   وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ أَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا   فَكَيْفَ ٱرْتِضَائِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا

فَإِذَا نُثِرَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ قِيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمْرَانِ ٱلدُّنْيَا وَمِنْ خَرَابِهَا عُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ وَلَمْ أَرْتَضِ أَوَانَ مَجِيئِهَا ٱلدُّنْيَا فَكَيْفَ أَوَانَ ذَهَابِهَا ٱرْتِضَائِيهَا . فَهٰذَا نَثْرٌ فَاسِدٌ فَإِذَا غَيَّرْتَ بَعْضَ أَلْفَاظِهِ حَسُنَ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : يُسَرُّ ٱلْمُضَلَّلُ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا يُسْتَأْنَفُ عُمْرَانُهَا مِنْ خَرَابِهَا . وَمَا ٱرْتَضَيْتُ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ ٱرْتَضِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ مِنَ ٱلنَّظْمِ مَا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ أَصْلًا بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى مِنْهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقْصَانُ . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

فَٱلْمِصْرَاعُ ٱلْأَوَّلُ يُمْكِنُ أَنْ تُؤَخَّرَ أَلْفَاظُهُ وَتُقَدَّمَ فَيَصِيرُ نَثْرًا

مُستَقيماً وهُوَ اَنْ تقُولَ : فؤَادُ ٱلفتَى نِصفٌ ولِسَانُهُ نِصفٌ . ولَا يُمكِنُ فِي ٱلمِصرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حتَّى تَزِيدَ فِيهِ اَوْ تنقُص مِنهُ لِاَنَّ ٱلمِصرَاعَ ٱلثَّانِي اِنَّمَا هُوَ تذيِيلٌ لِلمِصرَاعِ ٱلاَوَّلِ فَاِذَا اردتَّ اَنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقتَصرًا بِغَيْرِ لَفظِهِ قُلتَ : ٱلاِنسَانُ شَطرَانِ لِسَانٌ وجنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمكِنُ حَلُّهُ بِتَقدِيمِ لَفظَةٍ مِنهُ وَتَأْخِيرِ اُخرَى اَيضًا قولُ اَبِي نُوَاسٍ :

اَلَا يَاٱبنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا   اَمَا وَٱللهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبقَى

فَتحتَاجُ فِي نَثرِهِ اِلَى تَغيِيرِهِ وَاِبدَالِ اَلفَاظِهِ فتقُولُ: اَلَا يَاٱبنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوْا وَطَعَنُوا فَنَأَوْا فَوَٱللهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا اِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَامَاتُوا لِتَحيَا وَلَا فَنُوا لِتَبقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلاَلفَاظِ طُولٌ وَلَيسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرتُكَ فَاِنْ اَردتَّ ٱختِصارَهُ قُلتَ : اَمَا وَٱللهِ اِنَّ ٱلمَوتَ لَمْ يُصِبكَ فِي اَبِيكَ اِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّربُ ٱلرَّابِعُ اَنْ تَكسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلمَنظُومِ اَلفَاظًا مِنْ عِندِكَ . وَهٰذَا اَرفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنهُ مَا قَالَ بَعضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيثَمٍ وَقَدْ رَاَى ٱجتِهَادَهُ فِي ٱلعِبَادَةِ : قَتَلتَ نَفسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا اَطلُبُ. فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ:

سَاَطلُبُ بُعدَ ٱلدَّارِ مِنكُمْ لِتَقرُبُوا   وَتَسكُبُ عَينَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجمُدَا

وَمِنهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلحَسَنِ ٱلبَصرِيِّ فَقَالَ نَثرًا : اِنَّ ٱمرأً لَمْ يَعُدَّ بَينَهُ وَبَينَ آدَمَ اِلَّا اَبًا مَيتًا لَمُعرَقٌ لَهُ فِي ٱلمَوتِ. فَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ اِلَّا هَالِكٌ وَٱبنُ هَالِكٍ   وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ قَولَ اَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نُعَمُّ بِهَا   حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَرَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ. فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ. وَقِيلَ لِلْعَتَابِيِّ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ. فَقَالَ: بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا   قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ. وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ:

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ   تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى   وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى   وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا   وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَاتَّبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الِاتِّبَاعَ فَقَالَ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ   وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا   بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلطَفَ قَولَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُستَجمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخذَهُ مِنْ قَولِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلتُ يَا قَومُ إِنَّ ٱللَّيثَ مُنقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذَلِكَ قَولُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيفَ يَرقَى فِي ٱلمَعَالِي وَيَصعَدُ

أَخذَهُ مِنْ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسرَتُهُ ٱلعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذَلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلأَفوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسلِمٍ فِي مَعنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَولُ ٱلأَفوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيرَ عَلَى آثَارِنَا رَأْيَ عَينٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوا بِٱلجَيشِ حَلَّقَ فَوقَهُمْ عَصَائِبُ طَيرٍ تَهتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلتَقَى ٱلجَمعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَولُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيرُ غَزوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَولُ مُسلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيرَ عَادَاتٍ وَثِقنَ بِهَا فَهُنَّ يَتبَعنَهُ فِي كُلِّ مُرتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَاَنَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ اِلَّا اَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُهُ : (اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى اَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجَدٌّ آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضُ

اَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجَدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا اَخَذَهُ مِنْ اَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ اِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ فَاِذَا لُقُوا فَكَاَنَّهُمْ اَغْمَارُ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَاِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِاَنَّهُ اَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

رَاَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَاَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى اَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلْاَمَانِي حَدِيثَهَا ... وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْامَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنضَرَتْ اَيكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى ... عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا ... وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَورَدتُّ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْاَخْذِ اَنْ تَعمِدَ اِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمِمَّا اُخِذَ بِلَفظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَولُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَاتَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلبُعَيْثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلعَيْبُ لَازِمٌ لِلآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدتُّ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلأَخْذِ ٱلمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ... هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَاِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

بَزَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : اَيُفَاخِرُكَ ٱبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَاَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ اَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَاُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

اِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللّٰهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ اِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَاِنْ طَالَتِ ٱلْاَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ
اِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَاِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا ٱلْاَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا اِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا ٱلْاَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اِنَّ ٱللّٰهَ ذُو نِعَمٍ ... لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا
شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ... شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْاَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَاَخَذَ ٱبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فَيَالَائِمِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي فَقِيمَةُ كُلِّ ٱلنَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَأَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَأَخْرَجَهُ بَغِيضاً مُتَكَلَّفاً . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : (فَقِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ أَحْسَنُ مَوْقِعاً مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ٱبْنِ طَبَاطِبَا . وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ ٱلْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ ٱلْوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ ٱلْكِتْمَانِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَٱلضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُرْهَفٍ وَٱلطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ) أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ : مَوَاطِنُ ٱلْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ ٱلْأَعْدَاءَ مِنْ أَجْلِ أَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ ٱلطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ ٱلضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ ٱلْمُرَادِ . وَأَنْشَدَ عَبْدُ ٱلرَّحْمنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ وَتَنْدَقُّ قِدْماً فِي ٱلصُّدُورِ صُدُورُهَا
مُسَلَّمَةٌ أَعْجَازُ خَيْلِي فِي ٱلْوَغَى مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلرَّوْعُ كَسَّرُوا
صُدُورَ ٱلْعَوَالِي فِي صُدُورِ ٱلْكَتَائِبِ

فَأَحْسَنَا جَمِيعاً وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَلْقَى ٱلسُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ
وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا فَهَدَمْتُ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ يُعْقَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ اَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا اَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : (اَلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ اَدْنَاهَا مَرْتَبَةً اَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ اَخَذَ عِقْدًا قَدْ اُتْقِنَ نَظْمُهُ وَاُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَاَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ اَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ اُخْرَى مِثْلِهِ اَوْ اَحْسَنَ مِنْهُ . وَاَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ ٱلشِّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ اَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

وَأَلَــدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا ... تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْــدَهُ ... وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ ٱلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ ٱلْأَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلٍ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَأَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰــذَا ٱلنَّاثِرُ عَلَى أَنْ أَزَالَ رَوْنَقَ ٱلْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ ٱلنَّظْمِ لَاغَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَاعَيْبَ فِيهِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ إِذَا أَتَى بِذٰلِــكَ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْثَالُ ٱلسَّائِرَةُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي ٱلشِّعْرِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّالِثِ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ أَنْ يَنْثُرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ ٱلْبَعْضِ بِأَلْفَاظٍ أُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ ٱلصَّنْعَةُ فِي ٱلْمُمَاثَلَةِ وَٱلْمُشَابِهَــةِ وَمُؤَاخَاةِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَاقِيَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُرْتَجَلَةِ فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيــدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلِٱنْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَٱلِٱسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَٱلطَّرِيقُ ٱلْمَسْلُوكُ إِلَى هٰــذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ أَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَأُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَأَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحداءِ تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً   وَبلاَغةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلَأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ احسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا اردتَ ان تنثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ ان تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ اصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَامَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ إِلَيْهَا وَاتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ ان يَمْلَأَ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : اهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ امْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا اخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِانْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا او احسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي ان يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ اعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ ان يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هَا هُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرِنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالُ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

أَثْنَاءِ كَلَامِهِ وَجَاءَتْ أَلْفَاظُهُ مَغْسُولَةً مَغْسُولَةً وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ حَتَّى تَكَادَ تَرْقُصُ رَقْصًا ٠ وَهٰذَا شَيْءٌ خَبَرْتُهُ بِٱلتَّجْرِبَةِ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

تَمَّ بعونهِ تعالى

فهرس

المقالات

بعض كتب المطبعة الكاثوليكية

كتب مدرسية عربية

القواعد الجلية في علم العربية تأليف الاب جبرائيل اده اليسوعي طبعة جديدة مصححة مع حواشٍ وهو جزءان

بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات مع حواشٍ عليهِ لمصححهِ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني

مرقاة الطلاب في مبادي علم الحساب

مسائل مقتطفة في علم الحساب

جداول الافعال

الالفاظ الكتابية لعبد الرحمان الهمذاني اعتنى بضبطهِ وتهذيبهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كلية القديس يوسف

الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب انشأهُ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني معلم اللغة وآداب الانشاء في كلية القديس يوسف اقترحهُ عليه احد الاباء اليسوعيين

لطائف الاقوال في امثالٍ وقصصٍ مقتطفة افادةً للمدارس للاب بونافنتورا جيرودو اليسوعي

دفاتر لتعليم الخط العربي على طريقة مستحدثة

معرض الخطوط العربية وضع لتمرين احداث المدارس على قراءة ما ورد لهم من اصناف الكتابات ومطالعة عويص الخطوط ومستغلق الرسالات

هدية الاحباب في علم الحساب تأليف ميخائيل اصاف اللبناني

مائة حكاية تأليف كريستوفوروس شميد معربة بقلم ميخائيل بن فرنسيس المسابكي

مجاني الادب في حدائق العرب جمع احد الاباء اليسوعيين مدرس البيان في كلية القديس يوسف سبعة اجزاء

مرقاة المجاني لجامع مجاني الادب جزءان

مختصر الجغرافية تأليف جديد للاب كسفاروس اوجي اليسوعي

ديوان ابي العتاهية اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين

مختصر في الصرف لشرح جدول الافعال تأليف احد الاباء اليسوعيين

تمارين على كتاب القواعد الجلية في علم العربية تأليف المعلم رشيد الشرتوني

فقه اللغة لابي منصور الثعالبي اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كلية القديس يوسف